

لجنة البكائن العربي

الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا

تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

حقوق الطبع للمؤلف

المطبعة النوفلية
٦ سكة الشاوي بالجامعة الجديدة

لجنة البكّان العرّبي

الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا

تأليف

أحمد رمزي

القنصل العام ثم ممثل مصر السياسي
بسوريا ولبنان من ١٩٣٩ — ١٩٤٤

حقوق الطبع للمؤلف

المطبعة والنشر
٦ بكة الشاذلي بالحياتية الجديدة

(ج)

مقدمة الكتاب

للمستاذ محمد توحيد السامح

اقترح المؤلف الفاضل المعروف بثقافته السامية ، وأدبه البليغ وآثاره القلبية النفيسة ، أن تكتب هذه الكلمة . وإنه ليشر فيها أن يضعها بجانب مقدمته تكريماً للصدقة .

أما الكتاب فهدية إلى من شاء أن يعمل في سبيل بلاده الشرقية « بإرادة وبصيرة وعلم وحزم » . وهو « من وحى الحوادث التي توالى على الدنيا ، ووحى « الاطلاع » ، على المصادر التاريخية والسياسية والديبلوماسية التي تزيل الأوهام وتصحح الأفهام . لم يوضع على برنامج أعد له بدءاً ، بل جمع أبحاثاً سبق نشرها أو نشر بعضها . ولكن وحى الحوادث والاطلاع لم يمنع أن يجيء فحوى الكتاب وروحه ، والآراء الذاتية الجديدة الواردة فيه ، ثمرة يانعة من شعور المؤلف وقريحته مهداة إلى القلوب والعقول؛ ولم يمنع أن تكون هذه الآراء سديدة — وإن اعتذر صاحبها من

(د)

أى خطأ محتمل بأنه إنسان يخطئ ويصيب متواضعاً باعتذاره
تواضع الخبير المستنير، ولا أن يدل سياق فصول الكتاب وأقسامه
على أن الذى رتبته عقل منظّم عرف فن التأليف . وهو صنيع
جدى ينتفع به من حننه الضمير على توخى المعرفة من كثرة المشتغلين
فى شرقنا بالسياسة والدبلوماسية ، الرسميين وغير الرسميين .

والحق أننا ، نحن معاشر أهل الشرق الأدنى ، على ضلال سادرين
فى السعى لمطامعنا الذاتية ، وفى غرورنا وأوهامنا السياسية ،
وأساليب عيشتنا وما نسمة كفاحننا ؛ وصاحبنا على حق حيث يقول :
« ستفرخ على شعوب الأرض أنواع جديدة من الحياة وضروبها
وسيلقن الزعماء والقادة أشياء يتفوهون بها فيقولون أنها من عند
أنفسهم » ؛ وعلى حق أيضاً إن هو قصد إراحة ضميره بنشر أبحاث
لعلها تساعد فى إيقاظنا وهدينا الصراط المستقيم .

فان كثيراً من حوادث بلادنا وأحوالها ، قديماً وحديثاً ،
لانتبين حقائقه كلها إلا على ضوء كاف من واقع المنافسات
الاستعمارية وتدخل بعض الدول الكبيرة فى شؤوننا ، وتغلغل
النفوذ الأجنبي فى مصالحنا ؛ ونحن لا نتمكن من خدمتها بحكمة وليس
يتاح لنا الدفاع عنها ، فى حدود المستطاع ، إلا بقدر ما نعرف من

مصالح تلك الدول الحيوية وغير الحيوية ومن مصالح جيراننا ، وبخاصة في زماننا هذا الذى أصبح فيه استقلال كل دولة صغيرة أو كبيرة شيئاً نسبياً ، وتصرفها في سياساتها متأثراً من تصرف غيرها في سياساته .

وتلك حقائق لا تؤخذ من الكتب المدرسية والجامعية ، ولا من الصحف والبرقيات والدعائيات — وإن جاء في أقوالها أحيانا تليح يدرك مغزاه من يستطيع فهم الكلام على خلاف مقتضى الظاهر منه ، بل هي حقائق إنما مظاهرها مثل هذا الكتاب الصادر عن تلك الثقافة النظرية العملية ، العديدة الألوان ، الوافية ، التى تهدي الشعور ويعتدل بها حكم العقل لرسوخ أصولها السليمة في الوعي الباطن فلا يغتر صاحبها بالظواهر ، وإلا فإن البصيرة يكثر أن يعتربها ، أمام مناظر التاريخ أو الأحداث السياسية ، ما يشبه أوهام البصر فتقدر أن الجوهرى في هذه المناظر أو الأحداث هو أبرز ما يلفت النظر منها ، ولا تدرك أن الخطورة إنما هي للأمور القليلة الظهور ، المتسقة سيرتها ، الدائمة العامة .

فمن لا يتتبع في التاريخ ، مثلاً ، سوى أعمال كبار مثليه يرى فيه مناظر روائية جميلة لها وقع فني رائع ، فإن هو أدرك أن الأمور

(و)

يثصل بعضها ببعض ويرتبط بدا له عندئذ أن خلف المظاهر السطحية الروائية أموراً هي أقل حركة ولباعاً وشأناً للناظر العادى الساذج ، ولكنها أجدر بلفت نظر المستطلع الذى يتوخى أن يعرف سر الأشياء ومصائر الأمور .

ومثل هذا المستطلع البصير يتضح له أن أقوى الأفراد من البشر حققوا لأنفسهم بالتسلط على الأضعفين ما لم يكن لذواتهم عنه غناء من أحوال العيشة الراضية ؛ ويتبين له أن طفيلية الأعزّة هي الغرض الظاهر أو الخفى ، المباشر أو غير المباشر ، من أكثر النظم التى تشكلت على توالى القرون وكونت إطار المدنية ، حتى بعض ما يتضمن كونه ؛ ويستيقن أن الكفاح لا ينقطع : كفاح أفراد فى سبيل السلطة العليا ، وكفاح طبقات للسيادة فى شعب ، وكفاح شعوب لحيازة الأرض وحاصلاتها ؛ فمن جهة ، يجد الحروب والمعاهدات الدولية ، والثورات والمقاومات ، والاختلافات الحزبية والأزمات . والتراضى ، وكل أولئك أمور تدل على جهد الأنانية الطفيلية فى أفراد وجماعات غرضهم استغلال ينيلهم أكثر ما يمكن من المنافع ؛ ويجد من الجهة الأخرى مقاومة الفرائس التى تدافع عن نفسها وما فتئت تغير وجه الإنسانية ؛ وليس بد للضعيف من

(ز)

المصانعة تحقيقاً لأغراضه ، في حدود المستطاع ، على التدرج حتى لا تقعده القوى المختلفة التي لا قبل لها بها عن هذه الأغراض ، ولا وسيلة أمامه للتفادي من بعض الأضرار بغير حكمة ومصانعة ليست تحول دون التقدم بتؤدة نحو مثله الأعلى .

من أجل كل ما تقدم بيانه كان من أصول التأليف المفيد في « الاستعمار الفرنسي في شمال افريقية » ، أن يبدأ المؤلف بإيقاف كل قارئ على أصل الاستعمار الحديث واطواره ، وتوسعه الجارف ومشاكله وأثر هذا التوسع ؛ وأن يفهم العامة من المتعلمين ، والكثيرة من خاصتهم معهم ، أن كل دراسة لشؤون العالم بقصد الكفاح في سبيل تحرير الشعوب « يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره ، وأهميته ومداه » ، لكي نستخلص القواعد الأولية التي نعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الخائكة ، وهي التي تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوربة لكي يركز على أساس منطقي معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال ، وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تحرر نهائياً . فإذا هم وقفوا على تلك الأمور كان من أنفع ما يتضح لهم أن السيطرة الأوروبية جاءت بنتيجتين ، إحداهما

(ح)

إيجابية والأخرى سلبية ، و« أن الأثر السلبي كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الآسيوية والأفريقية ، وفقدان حريتها وتصفية الطبقات الحاكمة فيها ؛ فلم يعد فيها رجال من الصنف الأول ، وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها ، فلا بد لها من العمل على إيجاد أمثالهم .

وليس شك في أن هذا التهديد يسهل للقارىء تفهيم أقسام الكتاب العظيم على صغر حجمه وما احتوت من حقائق تاريخية ، شبه فلسفية ، في فرنسا ومستعمراتها وفي أثر المنافسة والعوامل الدولية في استعمارها ؛ وحقائق في الاتحاد السوفيتي والاتحاد الفرنسي والاتحاد الهندوكي ، وهذه « ثلاث هيئات اتحادية يواجهها العالم الاسلامي في يقظته وكفاحه ضد الاستعمار الانجلوسكسوني والاوروبي والصهيوني » ، ولو شاء المؤلف أن يفيض في بيان تلك الحقائق لاستطاع شرحها في مجلد ضخم ، وليته يشاء .

وقد أتاحت نظرتي العامة الثاقبة في هذا الموضوع العديد الجوانب العويص أن تتجه له آراء ذاتية جديدة : حيث أبان المتناقضات في أنظمة الاتحادات السوفيتي والفرنسي والهندوكي ، مع اظهار الناحية التعسفية في كل منها ؛ وحيث قارن بين أساليب السوفيت

الاستعمارية وما تنوى فرنسة إنشائه من اتحاد بين مستعمراتها ؛
وحيث شرح السياسة الدينية التي تجريها الدولة الفرنسية اللادينية في
الأقطار الاسلامية الواقعة تحت حكمها .

الخلاصة أن هذا المجموع من الأبحاث كتاب جيّد ، يُعتمد
عليه في فهم موضوع الاستعمار وسياساته الدولية ؛ ويحمل بمحب
الاطلاع والاستنارة أن يثق به ، ويقرأه بعناية وتفكر وإمعان ،
ليفهم ما في سطورهِ وما بين السطور ، أي ليدرك ما لم يقل مؤلفه
بما قال صراحة وتليحاً ، وعرضاً موجزاً لحقائق الواقع في الشعوب
والدول والسياسات والمنافسات الاستعمارية ، تلك الحقائق التي
يجب الاهتداء بمنطقها . فهو كتاب ينفع زعماءنا وساستنا ، أخلصوا
أو لم يخلصوا ، وينفع كل قارئ من الشرق العربي يريد ألاّ تضلّه
البرقيات والسفسطات السياسية والدعابات .

محمد تومير

القاهرة في ٢٠ من أكتوبر عام ١٩٤٨

الاهراء

إلى ذلك الرعيل من الرجال الذين قابلتهم فأوحت إلى
أعمالهم ونظراتهم وأقوالهم :
بالإيمان والثبات والتضحية .

إلى الطليعة الأولى من شباب الأمم المظلومة التي بدأت
تعمل بإرادة وبصيرة وعلم وحزم والتي غرست في نفسها
رغبة التغلب على المصاعب وذريزة مواجهة الأخطار .

إلى الذين يؤمنون بحق الشعوب المظلومة في الحياة ،
من أبناء الشرق والغرب ومن أبناء فرنسا نفسها .

أقدم هذا الكتاب ؟

المؤلف

مقدمة المؤلف

الى القارى والكريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ — الحمد لله والصلاة والسلام على محمد المبعوث لهداية العالم الذى جاء بكلمة الحق وفصل الخطاب فجهر بالقول ثم قرن القول بالعمل حين قاد الكتائب وباشر القتال وقام بالثورة الكبرى يومئذ حققت كلمة الله . وتحررت ارادة الانسان وتحطمت الاصنام الزائفة بعد عشرة قرون من الطغيان والجبروت على الشرق واهله .

٢ — وبعد فهذا كتاب ليس لي الفضل في إخراجه اذ جاء كله من وحي الحوادث التي توالى على الدنيا فهو مجموعة ابحاث وراء سبق لي نشرها او نشر بعضها في مجلة الرسالة الغراء . ولذلك لم اضع له برنامجا او خطة منطقيه ترمى الى هدف معين

٣ — ولا يظن القارىء اننى استجمعت كل المراجع التي وردت في نهاية الكتاب وتصفحتها عند كتابته وانما هي مجموعة من الكتب التي قرأتها منذ سنوات فأثرت في نظرتي لبعض الاشياء . لهذا فانا

مدین لها ولا اذکرها على سبیل التفاخر وانما على سبیل إرجاع الحق لاربابه .

٤ — ولقد تبدو بعض الاراء جديدة أو شخصية فهذه جاءت تتيحة دراسة بدأت منذ سنوات وبعد تفكير طويل لازمني مدة من الزمن ولهذا أراني مسئولاً امام القارىء عن هذه الناحية واقول اننى فكرت كإنسان فإن خاتنى التوفيق واخطأت فليس ذلك الا لانى انسان ومن طبيعة البشر أن يوفقوا أحياناً وان يخطئوا أحياناً
٥ — تسير الأمور بخطوات سريعة على غير ما نبغى

فعند كتابة هذا الكلام كنا نواجه القوى المتجمعة لنزع اوطاننا من ايدينا .

اما اليوم فإننا نواجه القوى الجامعة التى تحاول ان تفرض الفناء والابادة علينا

فهل تغيرت اساليبنا ؟

وهل استيقظ النائم ؟

وماذا سيأتى به الغد ؟

هذه اسئلة يجيب عليها المستقبل

٦ — ستتغير الدنيا بعد عشر سنوات وستفرض على شعوب

الارض أنواع جديدة من الحياة وضروبها وسيلقن الزعماء والقادة

أشياء يتفوهون بها فيقولون انها من عند أنفسهم ولكنى مطمئن الى حقيقة ثابته : هي

سيرى قارىء هذه الابحاث اننى لم احاول تضليله بتغيير الحقائق او التجنى على الحق وقد يأتى ناقد فيقول اننى كنت مخلصا مع نفسى اولاً ثم مع القارىء فهذه كله حق اريد بها الدفاع عن حق .

والصلاة عليكم ورحمة الله وبركاته

جيزة القسطنطينية في شارع الاهرام / ٤٠

١٢ شوال سنة ١٣٦١

١٧ اغسطس ١٩٤٨

احمد رضى

مراقب

مصلحة التشريع التجارى والملكية الصناعية

بوزارة التجارة والصناعة

بحث في الاستثمار الأوروبي وسيطرته على العالم

١ — مشاكل العالم الجديد

حينما ندرس حالة العالم بعد الحرب الأخيرة يتبين لنا بوضوح أن تاريخ الانسانية لم يعرف عهداً مملوءاً بالمشاكل والتناقضات والانقلابات المتتابعة والتغيرات السريعة التي تنفرد بخروجها عن كل قاعدة ومخالفتها للمألوف والمعهود مثل الذي نراه أمام أعيننا اليوم.

٢ — صعوبة الدرس

هل بوسعنا أن نستخلص بعض القواعد العامة أو الاتجاهات أو نضبط شيئاً من العلاقات التي تربط بين الأسباب بعضها مع بعض أو بين الأسباب والظواهر ، أو نستبق الحوادث فنكشف عن نتائجها ، أو تنبأ بما قد تأتى به الأيام المقبلة .

٣ — أثر القرن الماضي :

يصعب استخلاص شيء من ذلك الآن نظراً لتتابع الحوادث :

وتطورها السريع إلا إذا حرصنا على بحث الظروف التي مرت
بالعالم بين حريين . وكشفنا عن الدروس التي ألقاها علينا تاريخ
القرن الماضي بأكمله ، فقد تساعدنا على إلقاء نظرة تمهد لنا الطرق
وتسهل السبل لتكوين فكرة تقرب من الصواب ، تهدينا إلى تحديد
بعض النتائج التي حصلت عليها الإنسانية بعد خروجها من حريين عالميتين
نقرر ذلك لأن الفترة التي تقع بين ١٨١٥ - ١٩١٤ ، أي بين
مؤتمر فينا ، وإعلان الحرب العظمى الأولى ، كانت مملوءة بالحوادث
الكبرى فهي قد بدأت بتأكيد مبدأ القوميات والمناذاة بتحرير
الشعوب واستقلالها في أوروبا ، ثم خضعت لفكرة حفظ التوازن
بين الدول الأوربية الكبرى ثم كانت فترة الثورة التي نقلت أوروبا
من عهد الاقطاع وبقايا القرون الوسطى إلى عهد الصناعة الآلية
وما يلزمها من تنازع الطبقات وتضخم المدن الكبرى ونمو الرأسمالية
وبروزها كعامل أساسي انشائي في حياة الشعوب الأوربية .
٤- التوسع الاستعماري الجارف :

وكانت هذه الفترة كل هذا ولكن أكبر مظاهرها هو أنها كانت
عصر التوسع الاستعماري الجارف فما معنى هذا ؟
أن الذي يبدو لنا في عام ١٩١٤ ، وظاهر املوسا هو أن الدول التي
توسعت في أملاكها وازدادت علاقاتها بالأمم والمغلوبة والمحكومة
على أمرها ، قد أخذت تتحول من دول أوربية إلى دول ذات صبغة عالمية

وهمنا أن نعرف كيف تمّ هذا التحول، وكيف دخلت الدول الكبرى ميدان الاستعمار فأصبحت غير قادرة على التراجع من ساحته، والانكماش على نفسها بعد أن ذقت طعم حلاوته.

كل هذا يمكن تحديده ودرسه ؛ إذا عرفنا شيئا عن اتجاهات هذا القرن الماضى والتطورات التى تمت فى أثنائه.

٥ — الاستعمار قديم فى مساوئه :

فن المسلم به أن بعض الدول كانت تملك المستعمرات ؛ وكانت تعرف طريقة استغلال الأراضى والشعوب — قبل العهد الذى أفردنا التكلم عنه — ولكن نشاطها كان محدودا وفى دائرة ضيقه ولم يكن اتصال هذه الدول بمستعمراتها أو اعتمادها عليها بالقدر الذى وصلت إليه فى الفترة الأخيرة بل كان الاستعمار يحتاز أدوار المحاولات البدائية ، ويتعثر فى تجاربه التهديدية التى تحمل روح المغامرة الأولى.

٦ — عصر السيطرة :

أما فى الفترة التى أشرنا إليها فقد وصل الاستعمار إلى أوجه الأکبر حتى أن البشرية لم تعرف فى كل أدوار تطورها وكفاحها وفى كل عصورها السالفة بغير استثناء زمنا خضعت فيه شعوب الأرض المختلفة بمدنيتها وتقاليدها بل من نواحي انتاجها للحكم بعدم.

أوروبا مثل العهد الذى جاء بين ١٨١٥ — ١٩١٤

٧ — تسابق وتنافس وتزاحم :

ففى هذه اللفتة من الزمن اشتد التنافس والتسابق والتزاحم بين دول أوروبا الكبيرة والصغيرة القديمة منها والناشئة على احتلال الأراضى وتقسيم القارات لدرجة أن وصل إلى المناطق المتجمدة والصحارى القاحلة فأصبح الجليد والصخر والرمال وجزائر البحار ميدانا لكل هذا ومحلا للنزاع والاطماع ورفع الأعلام وتقسيم مناطق النفوذ بالمعاهدات والاتفاقات .

٨ — ما هو مركز الشعوب والحكومة :

فكل بحث أو دراسة لشئون العالم وكل كفاح فى سبيل تحرير الشعوب وإنقاذها من براثن الاستعمار ومشاكله يجب أن يسبقها تعرف هذا التوسع وأثره وأهميته ومداه لكي نستخلص القواعد الأولية التى تعرفنا العلاقة بين الشعوب المحكومة والدول الحاكمة . وهى التى تنير بصيرتنا وتحدد مركزنا إزاء أوروبا لكي يركز على أساس منطقي معقول موقف الأجيال القادمة من هذه السيطرة وعلاقتها بما يجيش بصدور الشعوب من آمال وما ترجو الوصول إليه من أهداف حتى تجرر نهائيا منها .

وأول ما يتبادر إلى الذهن هو التساؤل عن أثر هذا التحول

أو التطور العالمى الذى كان من نتيجته أن انقسمت الإنسانية إلى فريقين

١ — أمم قوية سائدة مستعمرة

٢ — أمم ضعيفة خاضعة : لا تجد رغم جهودها الفرض للملاحقة الأولى .

٩ — أثر السيطرة الأوربية :

فلنكن هنا صريحين أمام الحقائق وإن كانت مرة علينا .
كان من أثر هذه السيطرة أن تحطمت المدينيات القديمة التى كانت سائدة فى قارات العالم بل اندثرت وتلاشت بقاياها وآثارها وأنظمتها أمام مدنية الأوربيين وتفوقهم المادى والعسكرى .

١٠ — نتائجها السلبية والإيجابية :

ان الأثر السلبى كان مظهره ضياع استقلال الشعوب الآسيوية والافريقية وفقدان حريتها وتصفيه الطبقات الحاكمة فيها فلم يعد فيها رجال من الصف الأول وهذا النوع من القادة هم عدة الشعوب ودرعها أما الأثر الإيجابى فهو أن السيطرة الأوربية اقترنت بزيادة السكان فى المستعمرات بل أصبحت هذه الزيادة مظهرا من مظاهر الإستعمار الأوروبى ويرجع هذا إلى التقدم المادى وحالة الاستقرار التى فرضتها الدول الحاكمة حتى لقد لاحظ الاجتماعيون أن هذه الزيادة فى سكان المعمورة لم تعرفها الإنسانية من قبل فى أى عصر من عصورها السالفة^(١) .

(١) لا يزال الجزء الغربى من آسيا ووسطها ناقصا فى السكان : فلم تستعد تركيا وإيران والقوقاز وأراضى التركستان ما كانت عليه من العمران فى السابق .

ثم كان من نتيجة هذه السيطرة وما تبعها من تنافس وتغلغل في جهات مختلفة ان ارتبطت أنحاء العالم بطرق مواصلات سهلة كانت أولى آثارها ان خضعت الشعوب خضوعاً أعظم أمام القوة إذ فشلت كل محاولة للثورات واستعمال القوة وأصبحت علاقات الشعوب مع القوة الغاصبة هي علاقة التابع للمتبع (١).

فهذه ناحية سلبية تقابلها أخرى إيجابية تتخلص في أن هذه الأمم التي جهلت بعضها حيناً والتي تنافرت في العصر السالفة وجدت نفسها تحت الاستعمار الأوروبي وما أدخله من سهولة الانتقال في مركز يسمح لها بالتعارف واستعادة العلاقات والروابط التي كانت قائمة بينها يوماً ما ثم انقطعت .

١١ — العلم والاقتصاد سلاح المستعمر :

استقرت سيادة الأوروبيين وسيطرتهم على الأرض بتفوقهم العسكري ومقدرتهم على استعمال الأسلحة الحديثة وأمنوا أن تقوم الشعوب عليهم حينما أخذوا بأنظمة تجنيد المرتزقة وكتائب الشعوب الملونة فألقى عبء القتال واستتباب الأمن عليها ونزلت تكاليف الحكم والإدارة إلى أدنى ما يمكن أن تصل إليه فاتقل الإستهجار من ميدان الفتح واستعمال العنف إلى طور جديد هو الاستعانة بالعلم والاقتصاد على تنظيم استغلال المستعمرات وثرواتها المعدنية والزراعية على أسس جديدة

(١) يخيل للكثيرين ان عهد الاستعمار قد انتهى ، اما نحن فندري ان ابعاد البلاد الآسيوية او الافريقية قد اصبحت تحت رحمة المستعمرين في أى وقت شاؤوا قدفوها بقنابلهم .

أى اتجهت الحكومات وهيئاتها الاستعمارية إلى تحقيق فكرة سيطرة الإنسان على مرافق الحياة وإخضاع الطبيعة لسلطانه وأرادته بكل ما فى العلم من قوة ثائرة Révolutionnaire وما فى الاقتصاد من قوة منتجة وأخذت هذه الاتجاهات تتطور بسرعة فائقة حتى أخذت مظهر الادفاع للسير بهذه النهضة نحو تحقيق أهداف عالمية .

١٢ — الدراسات العلمية فى خدمة الدول المستعمرة لحكم الشعوب :

أما من الناحية السياسية فقد أخرج القرن الماضى لدى الدول التى تقدم لديها الوعى الاستعمارى نشاطاً أشد خطراً من الأسلحة وأمضى وأعظم أثراً هو الدراسات العلمية والنفسية وتطبيقها على إدارة المستعمرات وفى حكم الشعوب المغلوبة على أمرها^(١) .

لقد أصبحت هذه الدراسات أقوى دعائم سيطرة الأوربيين ودليل تفوقهم ومقدرتهم على قيادة الشعوب التى يحكمونها وتولى مقاليد زمامها فكانت النتائج التى وصلوا إليها كنجاحهم أمام إحدى مظاهر الطبيعة التى ألانواقناتها وأخضعوها لمشيتهم فى عالم الجراد والحيوان فطبقوها تباعاً على فريق من بنى الإنسان الذين أوقعتهم الأقدار تحت أحكامهم .

١٣ — النظام الاقتصادى فى القرن الماضى . « الباب المفتوح »

ومع توالى نجاح الأوربيين فى عملهم أصبحت مشكلة المستعمرات كبرى

(١) بفهم من هذا ان للاستعمار فلسفة : واول من فهم فى حاجة لدروسها فرعاء : وقادة الامم الشرقية حتى لا يلزمهم الفشل وتلاحقهم الاخطاء .

مشاكل العالم المتمددين لأنها وليدة النظام الاقتصادي الذي ساد الدنيا بين حربين وكان من أثره تلك الأزمات التي عايتها الإنسانية في العالم الرأسمالي بعد أن أصبح مكوناً من مجموعات كبرى ذات صبغة عالمية يسودها التنافس. أما في القرن الماضي فقد كان النظام السائد في عالم الاقتصاد هو نظام الباب المفتوح وهو يتلخص في أمرين حرية البحار وحرية التجارة ثم التكافؤ في المعاملة أي محاربة الاحتكار والمعاملة الممتازة وفتح الأبواب المغلقة وتكسير الأسوار الفولاذية التي تفرضها بعض البلاد وتمسك بدرجة من الاستكفاء وبما لديها.

فالبوارج الحرية من مختلف الجنسيات الأوروبية التي قذفت بقنابلها موانئ الصين واليابان في القرن الماضي كانت في عدوانها تفرع الأبواب المغلقة وتفرض سياسة الباب المفتوح — وفي مصر كان تساهل الدبلوماسية الأوربية لبقاء الاحتلال البريطاني يلازمه دائماً اشتراط العمل بسياسة الباب المفتوح وأخذ الضمانات على الإنجليز ألا يكون لهم مركز تجاري ممتاز أو أكثر رعاية في الشؤون الاقتصادية والمالية عن غيرهم ولذلك بقيت حرية الحكومة المصرية في فرض الضرائب الجمركية وزيادتها مقيدة كما كانت في السابق أيام السيادة العثمانية رغم سيطرة البريطانيين المباشرة وتدخلهم بغير حق بوجود جيش الاحتلال. (١)

(١) ستحطم هيئة الأمم المتحدة . بسياسة الباب المفتوح الاسوار الفولاذية والكتل الاستعمارية لفرنسوف هولنده والبرتغال : خدمه للاستعمار الانجلوسكسوني

وكانت سياسة الباب المفتوح إحدى دعائم القوة البريطانية الاستعمارية بل استغلتها بريطانيا استغلالاً شائناً كلما أرادت التدخل في الشؤون الداخلية للأمم أو إيجاد مبرر لسياستها معتمدة على أنها تعمل بوحى الرغبة الدولية العامة لاحترام مبادئ وقواعد وضعت لصالح المجموع الدولى الأوروبى.

١٤ - النظام الاستعمارى يحتم الخروج عن هذه القاعدة :

وحينما تقدمت الدول الأوروبية فى طرق استغلال أراضيها بالمستعمرات وكثرت مواردها وزادت ثرواتها زيادة هائلة ، تطورت علاقاتها مع ممتلكاتها وسارت اشواطاً نحو الوحدة الاقتصادية أو ما يشبه الاتحاد والتكتل بين الدولة الأوروبية وما يخضع لها سياسياً من الأقطار فيما وراء البحار .

وأدى هذا التطور إلى أن أخذت كل وحدة تطمع فى الاستكفاء بنفسها والاستقلال بمواردها .
وظهر هذا الاتجاه فى ناحيتين .

الأولى - أن الميزان التجارى الذى كان يعتمد على حرية التجارة .
خضع لمقدرة الدول الاستعمارية واستعدادها لتصرف الفائض من منتجاتها الصناعية فى المستعمرات التى تملكها .

الثانية - أن المواد الأولية التى كانت من المبدأ تحت متناول يد

بقية العالم عملاً بمبدأ حرية التجارة أخذت تنحصر رويداً رويداً في الأقاليم الأفريقية والإسيوية وغيرها بيد رجال وشركات الدولة الحاكمة فأصبحت بعد مرور سنوات قليلة محتكرة بيدها وبعبء عن ومتناول الأسواق الحرة .

ولما كان كوكبنا الأرضي محدود المساحة ولم تبق منه بقعة خالية لم يرفرف عليها علم أحمر أو أزرق أو أخضر ولم يبق شعب من الشعوب إلا وأوقعه الحظ السيئ تحت سيطرة أو حماية أو وصاية جمعت الدول الاستعمارية ثروات طائلة من احتكارها لهذه المواد وكان من الطبيعي أن تتلاقى القوى الاستعمارية على حدود مناطق لا تتعداها وإلا تصادمت مع قوة لا تقل شأنًا عنها .

١٥ — التنافس في دائرة التوازن بين القوى :

انتهى التوازن الأوروبي إلى توازن عالمي مساح وأدى التوسع الاستعماري إلى تنافس سلبى ظهرت بوادره ابتداء من القرن العشرين فمشكلة فاشودة المعروفة تمثل القمة في التنافس الفرنسي البريطاني على اقتسام مناطق أفريقية ثم تلاقت الكتلتان الاستعماريتان في اتفاق سنة ١٩٠٤ المشؤم الذي أطلق أيدي فرنسا في شئون سلطنة مراکش واعترف بمركز بريطانيا في مصر واوجد الحلول للمشاكل الاستعمارية بين الكتلتين .

ويعتبر اتفاق ١٩٠٧ بين بريطانيا والروسيا حلقة أكلت الاتفاق الأول إذ أنه جعل من إيران مناطق نفوذ وحدد الموقف ازاء أفغانستان وأقاليم أخرى في آسيا وسد الباب على هذا التلاحق والتنافس أو قل أبعد الاحتكاك بين قوتين استعماريتين تخشيان الحرب والتصادم فيما بينهما .

ومع قيام مثل هذه المعاهدات والاتفاقات فإن التنافس بقي قائما بين هؤلاء المستعمرين وغيرهم ووصل إلى مداه قبل الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ وظهرت بوادر التسابق على اغتصاب المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية واحتلالها وتحصينها خصوصا التي تسيطر على طرق الملاحة والمواصلات الدولية استعدادا للحرب التي كانت لاشك آتية .

١٦— أوروبا تخوض الحرب العالمية الأولى وهي في عنفوان قوتها .

كانت أوروبا في عنفوان قوتها ومجدها وسلطانها وقد ورثت الأرض ومن عليها حينما قامت الحرب العالمية الأولى وكانت حربا قاسية ضروبا خسرت فيها الدول الأوروبية زهرة شبابها ولما وضعت الحرب أوزارها كانت أوروبا كمركب شراعى كبير يخرج من وسط أعصار هائل .

وكان من مظاهر هذه الحرب أن شعوب المستعمرات شاركت

الامم الأوروبية القتال فيها بأموالها ورجالها والغريب أن نتيجة هذه المساعدة كانت وخيمة على هذه الشعوب إذ بمقدار عظيم الضحايا التي بذلت والخدمات التي ادتها المستعمرات ، زادت أطماع الدولة الحاكمة في التمسك بها والتحكم فيها .

١٧ — متاعب أوروبا :

وظهر جلياً بعد الحرب أن أوروبا تحطم فيها أكثر ما خلفته القرون الماضية من أنظمة اجتماعية وسياسية واقتصادية .

فلو قدر لمتربخ الوزير النمساوى أو لغيره من أساطين وبنمردة الرجعية الذين خيّل إليهم أن الاقدار تسير طوع ارادتهم ، أن يروا بقايا الانقراض والخرائب التي تركتها الحرب وذلك الفراغ الهائل في نفسية الشعوب ومثلها العليا وكيف كانت هذه الامم قاب قوسين أو أدنى من الدمار والانحلال إذن ليصعب عليهم أن يجدوا أثراً من الأنظمة التي فرضوها على هذه الشعوب في مستهل القرن الماضى .

لقد تحررت أوروبا من آثار القرن التاسع عشر وتقاليدِهِ ولسكنها لم تنهأ بحالتها الجديدة إذ دخلت عصر اشعرت فيه لأول مرة بالفقر المادى والمعنوى وواجهت نوعاً من المتاعب والمشاكل لم تألفه في ماضيها فهي لم تستعد قوتها السالفة ولم تأت لها الأيام بالسلم والراحة والطمأنينة التي كانت تحلم بها طول أيام الحرب .

كانت العشرون عاما التي اعقبت الحرب العظمى كشر يط سينها في
للحوادث استمر يعرض علينا مصائب الشعوب ومشاكل الحدود
والاقلية والثورات المتتالية (١).

وكان البلقان في القرن الماضي يحمل هذا الطابع فأصبحت أوروبا
بلقانا ثانيا لأن ما أثارته الحرب وسنرات ما بعد الحرب من المشاكل
والشكوك والريب والأطماع كانت أضعاف ما عرفت أوروبا في قرنين من
الزمن وقد جاءت هذه كلها وجراح أوروبا لم تلتئم بعد فكانت شديدة
الوقع على الشعوب ومقدراتها.

كانت أوروبا قبل الحرب ست دول عظمى هي بريطانيا وفرنسا
وروسيا ثم ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا هي التي تسيطر على الحرب
والسلم وتقيم سياستها على قواعد الدبلوماسية السرية وأساليبها الملتوية
وانتهت الحرب فادا أكبر متاعب أوروبا تسببها مجموعة من الشعوب
الصغيرة التي أوجدتها معاهدات الصلح دون أن تستند على دعائم
تاريخية ثابتة أو أسس راسخة فهذه الدول المرتجلة أمضت العشرين
عاما بين الحريقين تتأرجح بين التيارات المختلفة فهي لم تثبت على
مبادئ واحدة ولم تنهج سياسة معينة وكما كانت في الماضي ستكون
في المستقبل من أهم العوامل التي ستثير الحرب العالمية الثالثة.

فقد كان تنازع هذه الدول على مقاعد عصبة الأمم يضحك أوروبا

(١) ان الفراغ الذي تركته امبراطورية هـ بسبرج في وسط أوروبا : قد
اعترف به أولئك السياسيون الذي نادوا بتعطيلها — واليوم يعترف
الانجليواميركان بخطأهم في أضعاف ألمانيا وتعطيلها.

كما كان اجتماع مجلس التحالف الصغير المسكون من تشيكو سلوفاكيا ويوجو سلافيا ورومانيا لتهديد حكومة المجر المجردة من سلاحها يدل على شجاعة ولكن هذه الجرأة لم يجد لها العالم من أثر حينما أنفض المجلس وتضاءل وانكمش امام قرار ضم النمسا لالمانيا الكبرى واحتلال تشيكو سلوفاكيا : لئلا انتهى التحالف الصغير وسط ضحكات السخرية والتهكم وقتئذ .

فهذه الشعوب والدول الصغرى كانت تسبب الكثير من الضجيج ولكنها لم تكن يوما ما مستقلة في سياستها ولم تكن مخصصة للمواثيق والعهود التي قطعتها على نفسها بل ستبقى في المستقبل كما كانت في الماضي العوبة بيد الكتل الكبرى .

١٨ — التهيئة للتركيز الاقتصادي في الكتل الكبرى :

فقدت أوروبا مركزها الممتاز وسط القوضى التي كانت سائدة فيها بانهيار القوة التي كانت تمتلكها شعوبها أمام العالم ، ولذلك اتجهت الدول العظمى الاستعمارية إلى دعم مستقبلها معتمدة على عوامل عالمية أو كونية أكثر منها محلية أو أوروبية ، وكان التفوق الصناعي والمقدرة الرأسمالية تسير بالدول الاستعمارية نحو التركيز الاقتصادي أو في طريق خلق نوع جديد من الامبراطوريات الاقتصادية أو الوحدات المسكونة من مجموعة من الدول والأمم التي وإن كانت

غير مرتبطة سياسياً فهي متعاونة اقتصادياً ومادياً وهذه كانت بداية الكتل الكبرى التي ظهرت في العالم ونراها اليوم في عنفوان قوتها. ١٩ — خروجها من الأزمات ومواجهتها للمتناقضات :

ولم يكن هذا الترجية في حلم أحد من الناس بل هو النتيجة الطبيعية للعوامل التي سببها التوسع الاستعماري الجارف وهذا التطور الذي صعب العالم وبينما كانت هذه الأمم في غمرات هذه الفترة تسير بخطوات واسعة نحو تأكيد سيطرتها معتمدة على تفوقها ظهرت المتناقضات في أنظمتها الاقتصادية^(١).

فالأنظمة الرأسمالية وقواعد استثمار المواد الخام وكذلك شركات البترول العالمية لم يفكر أحد من رجالها في الأزمات المتتالية التي بدأت سنة ١٩٣٠ وغمرت أمريكا وأوروبا وهددت بالإفلاس المؤسسات الإقتصادية والمالية الكبرى فلم تكن هذه الرجات أوروبية أو أمريكية أو محلية حتى يمكن تلافيها بل كانت عالمية تشبه السنوات العجاف التي تحدثت عنها الكتب السماوية .

كانت هذه الأزمات الواقعة بين حربين امتحاناً قاسياً للأنظمة الرأسمالية وهيكلها الإقتصادي ولقوة المقاومة لدى الدول الكبرى ثم كانت أهم من ذلك إذ برهنت على قوة الرأسمالية واستعدادها للخروج منتصرة من وسط الأزمات وقابليتها لمواجهة المتناقضات

(١) تظهر المتناقضات في تنظيم الاستثمار لكل دولة بن في المجموع الإقتصادي كله نتيجة لسياسة المنكسر الانفرادي لكل كتلة من المستعمرات

وهي ميزة لم تتمكن الشيوعية بعد من إثباتها أو البروز بها رغم خروجها منتصرة من الحرب الأخيرة .

وكانت هذه الأزمات دافعاً قوياً أقنع بريطانيا وأمريكا أن مستقبل العالم يتطلب تنهما وتعاوناً وتكاتفاً بين حكومات الأنجلوسكسون وبدأت هذه الظاهرة واضحة لمن أنصت إلى خطاب الرئيس ويلسون سنة ١٩١٦ وهذا التفاهم هو الذي أدى إلى دخول الولايات المتحدة في الحرب وهو الذي جعلها تقف في صف بريطانيا بعد انتهائها لمواجهة مشا كل العالم الجديد . والذي سيحتم يوماً تأليف كتلة منهما ازاء السوفييت

٢٠ - نظرة شرقية للعالم بين حربين :

لم تحصل أمم العالم على شيء من حريتها بعد الحرب الأولى ، وبقيت كما كانت خاضعة لسلطان أوروبا ودولها^(١) ومع هذا كان يبدو للناظر أن الدنيا يغمرها طوفان أو فيض هائل من خيرات الله ، ولم يحدث في العالم أن وصلت مستخرجات المواد الأولية إلى ملايين من الأطنان من كافة الأصناف إلى ما وصلت إليه في السنوات العشر بين سنة ١٩٢٠/١٩٢٩ ، وما يقال عن المواد الأولية يقال عن المنتجات الزراعية والصناعية وغيرها بما تخرجه الأرض وتصنعه يد الإنسان ويقابل هذا الفيض العظيم حرمان غريب فرض على أكثر من

(١) استعملت مبادئ ولسون لتحرير شعوب المستعمرات و طبقت في أوروبا فسيبت قيام الحرب الثانية .

ثلثي الإنسانية الذين يعيشون في مستوى من الفقر والفاقة لا يتناسبان مع المستوى اللائق بإنسان قفى الوقت الذى كانت فيه ثروات العالم وخاماته تنقل بانتظام إلى البواخر بين القارات وصل استغلال الشعوب الآسيوية والأفريقية وبعض الأمريكية إلى منتهاه بل إلى درجة لم تعرفها الأرض قبل ذلك وفي الوقت الذى كانت الدول الحاكمة تصرف الملايين على بناء الأساطيل وعلى ميزانيات الجيوش كانت هذه الأجزاء المغلوبة على أمرها تعاني من ويلات المجاعات والأوبئة وتخسر من ابنائها ما لم تكلفه الحروب من خسارة في الأرواح وكان ما يصرف على إنشاء بارجة واحدة يكفي لتعليم أبناء أمة ترزح تحت يرائن الاستعمار وما يصرف على فرقة دبابات مدرعة يكفي لإيواء أهل مدينة واسكانهم في منازل تشبه البيوت التي يسكنها الناس في أوروبا وأمريكا أن التسليح الجارف استهلك أحسن ما أخرجته عقول البشر وافقر الإنسانية وجعل بقاعا من الأرض تستمر خرابا إلى اليوم .

ان أكبر متناقضات المدنية الحديثة مدنية الرجل الأبيض سواء كانت رأسمالية أو شيوعية ديموقراطية ام نازية هي أن غالبية سكان الأرض لا يصيبهم منها سوى النزر اليسير ان لم يكن أقل من اليسير من الفيض الذى تخرجه أراضي بلادهم فسواء كان الاستعمار أوروبا

أو امريكا أو سوفيتيا فهو واحد لا يتغير ويصدق في سكان المستعمرات والبلاد المحكومة قول الشاعر العربي .

كالعيس في البيداء يقتلها الظم والماء فوق ظهورها محمول
ولنضرب لهذا مثلاً عن سكان الأرض وتعدادهم وهو لا يقل عن ألفى مليون نسمة ثم خذ المستوى في بلد من بلدان المستعمرات في آسيا وأفريقية ، أو في بعض بقاع أمريكا الجنوبية نجد أن أكثر من نصف السكان من رجال ونساء وأطفال شبه عراة وهذا مما يجعل أكثر^(١) من نصف الإنسانية في حاجة إلى الكساء بينما كانت آلاف الأطنان من القطن الخام يحرق في المزارع الأمريكية من أجل نصف ريال يدخل في جيوب المنتجين .

ولا تزال مشكلة نقص الغذاء تشغل العالم وهي مشكلة مخيفة إذا درسناها على ضوء الدروس التي تلقيناها مصر في أدوار الغلاء والمجاعات التي مرت بها في السابق وهبط بسببها عدد السكان وخربت مناطق كانت عامرة في شمال الدلتا ، وفي مديرية البحيرة ، وعلى الطريق بين الإسكندرية وبراقة^(٢) .

ولا تزال ذكرى مجاعات الصين والهند تعاودنا ، ولا يمر عام رغم ارتباط العالم وسهولة مواصلاته دون أن تسمع بإصابة المناطق الروسية بتقحط شديد ، حتى في سنوات الخصب والزجاج تجب أن

(١) بقدر الكاتب الأمريكي إستور داد عدد الشعوب الملونة بأكثر من نصف سكان الأرض (٢) راجع كتاب المقريري (اغاثة الامه بكشف الغمة)

أهل المستعمرات لهم نصيبهم من قلة الغذاء ونقصه ، بل ذكر كثير من رجال الاستعمار أن هناك ملايين من بنى آدم لا يصيبهم غير وجبة واحدة وضئيلة في اليوم الواحد ، وكثيرا ما تكون مكونة من المرق وقليل من الأرز بينما هناك الأطنان من المواد الغذائية كانت تستعمل للحريق في القاطرات والبواخر لأن بلادها تريد أن لا تنخر رايالا من أثمانها

وإذا كان الاستعمار من وسائل تعذيب الشعوب لخدمة دول معلومة ، أو طبقة حاكمة فيها فإن الاتحاد السوفيتى ضرب مثلاً فى تعذيب ١٨٥ مليوناً من الناس لتطبيق نظام خاص فإن المبالغ التى صرفها الاتحاد على المزارع التعاونية والنموزجية وإدخال الصناعات قد نقلت فعلاً الاقتصاد الروسى إلى الأمام ، ولكنها اشترت بثمن فاحش وبجرمان الشعوب من حق الحياة الحرة ، وهل يمكن معرفة عدد السعداء حقيقة بين حدود حكومات الاتحاد السوفيتى .^(١)

مهما كانت الظروف المحيطة بالعالم اليوم وهى لا شك غير مشجعة فقد كانت مثل هذه الظروف سائدة قبل الحرب ، ولكن النيات كانت راغبة فى الخروج من هذه الحالة أما اليوم فلا توجد هذه النية . بل كل الدلائل تقنع باقتراب العاصفة وفى تلك الأيام قامت الدعوة لعقد مؤتمر اقتصادى عالمى فى مدينة

(١) خصوصاً بين شعوب آسيا الوسطى والقوقاز والقرم الإسلامية .

نُدرة ولم يأت الاجتماع إلا بعد أن توالى النكبات وتعاقبت
الآزمات قبل سنة ١٩٢٣. وكان الغرض الخروج من حالة مبهمة .
وتعود بي الذاكرة لاقتناص بعض ما وعته نفسي ، فأني رغم
ابتعادى عن التفاصيل اذكر مبدأين نودى بهما وقتئذ .

الأول - أن بقاء الاتحاد السوفيتى يحكم سبع الأرض المعمورة
تحت انظمة تجعل منه بقعة بداخل سور فولاذى ، ويمنع أهله عن
الاتصال والأخذ والعطاء مع الأمم الأخرى ^(١) قد أخل بالتوازن
الاقتصادى العالمى ، وان الأمم ان يتحقق لها الخلاص من الآزمات
إلا إذا عاشت الدنيا تحت نظام متجانس . وقال الآخرون إن علة
المدينة الحالية هو كثرة الانتاج ، وإن علاج الآزمات هو رفع
مستوى الجماعات البشرية التى تعيش فى المستعمرات ووضعها فى مستوى
يسمح لها أن تبيع وتشترى وتحيا حياة الانسان وهذا هو المبدأ الثانى .
أما النظرة الشرقية بعد هذا فترى أن الحياة لا تحتل كل هذه
المفارقات وأن ما يصرف على الأساطيل والجيش هو مثل ما يصرفه
السوفيت على جيوشهم ومزارعهم ومصانعهم تدفع ثمنه البشرية
من حرمانها فلا يرتفع مستوى الجماعات فى المستعمرات إلا اذا وطنت
الأمم الأوربية نفسها على السلام لأن الأسلحة التى تجمعها هولاندة هى
من دماء اندونيسيا والغريب أنها توجه فى النهاية إلى صدور الأمم المظلومة

(١) لا تزال هذه الفكرة قائمة الى اليوم وهى المحرك الاساسى للحرب القادمة

والصناعات التي يتميها السوفيت ويبدلون الجهرود من أجلها قد ينسبل
على الآخرين إقامتها وإنشاءها في روسيا بتكاليف أقل وبدون أن تتحمل
الشعوب السوفيتية هذا الاجهاد الهائل والجرمان الدائم. إنك تحكم على فرد
بالأشغال الشاقة مدة طويلة لتعده بأن يملك يوما عمارة أيوبيليا مع
أن فتح هذا السور الفولاذي من حولهم يعيد الحياة إليهم؛ ويجعل
من الدنيا موطننا واحدا للبشر كافة وهذه رسالة الرأسمالية في نظرهم.

كان مؤتمر لندرة الإقتصادى كسوق قام ثم انفض ولم يرج
فيه أحد فلم تحل مشكلة المواد الأولية لأنها أساس الاستعمار وبقيت
هذه المواد وأصحابها : أى سكان البلاد المظلومة على الحالة التي وجدهم
المؤتمر عليها ، ولم تلتق نظريات الروس مع عالم رأس المال ، ولم
تنق حتى الأمم الرأسمالية عند فكرة واحدة ولو أمكن الإنفاق
على المواد الأولية ورضيت الدول الاستعمارية أن تشترك معها ببقية
الأمم فى شيء من خيرات الأرض لما قامت الحرب العالمية الثانية
وهكذا تفرعت اللجان فى المؤتمر وتوزعت الأعمال ووضعتم التقارير
وخسر العالم آخر فرصة لإنقاذ السلم إذ بعد فشل مؤتمر لندرة سنة
١٩٣٣ تسابقت الدول إلى التسليح واستعدت للحرب العالمية التى
بدأت منذ سنة ١٩٣٣ ولم تلتها بعد .

قامت هذه الحرب والعالم مكون من عدة كتل تختلف قوة وهى :

١ — الولايات المتحدة وممتلكاتها ودول الأمريكيتين .

٢ — بريطانيا وأمباطور يتهاو أصدقائها ومعها هو لاندق.
ومستعمراتها والبرتغال ومستعمراتها.

٣ — وروسيا في أوروبا وآسيا .

٤ — فرنسا ومستعمراتها وفيها باجيكا وتوابعا .

٥ — اليابان والشرق الأقصى .

٦ — ثم إيطاليا تحاول أن تبني لها أمباطورية .

أما بقية العالم فاستمر حائرآ ينظر إلى المستقبل بأساليب القرن
الماضى أحيانا وكانت المانيا تسير بخطوات جبارة وهي التي تملك
أكبر جهاز صناعى في أوروبا ولا ينقصها سوى المستعمرات لتكوين
أكبر الكتلة العالمية وهذه سرقت منها في فرساي ولما وفقت الأمل في
أخذ المواد الأولية بالسلم في مؤتمر لندرة استعدت أن تأخذها بالسيف
وكانت اسبانيا في موقف أمة شرقية تحاول أن تقلد الغرب وتنام
ملء جفنيها لتحلم بالارمادات تمخر البحار وفرديناند^(١) وإيزابلا يطاردان
الموريسكو^(٢) الملعون على سفوح جبال أطلس وكانت إيطاليا لا تنفك
تردد أغنية الأمباطورية الرومانية في الصباح والمساء حتى ضج
الناس من روما ومجدها وشرائعها وكان للتحالف الصغير مشكلة
تقلق مضاجع كل من رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوجوسلافيا
هي قبعة الأمير الطفل الوارث لعرش هابسبرج وكانت بولونيا

(١) اسم ملك اسبانيا وملكته اللذين طرد العرب في عهدها .

(٢) الاسم الذى يطلق على المسلمين .

فرنسية عاما حيادية عاما وانتهت إلى أن جعلها الكولونيل بيك وزير خارجيتها حليفة لألمانيا ثم دهمته الطائرات الألمانية حتى خرج شاردأ من بلاده .

هذه حالة أوروبا عند قيام الحرب بعد إن فشلت إجتماعات لندرة لتأليف عالم جديد بالتفاهم والإرادة الحرة ثم ظهر أن الفريق الغالب هو الذى يملك من القوى الإنشائية والدعائم الاقتصادية أكثر من غيره وأن الأسلحة تزدوب وتقنى والمبادئ المتطرفة والأحزاب تبلى بجانب هذه السيطرة الصناعية القوية ولذلك أخذت خطوات التكتل تسير بسرعة فائقة فهو لاندو والبرتغال اتجهتا نحو الكتلة البريطانية وجمهوريات أمريكا الجنوبية التأمّت فى النظام الاقتصادى للولايات المتحدة .

وانقسم العالم الرأسالى شطرين : الذين ملوكوا الأرض واستكفوا^(١) والذين يرغبون فى المستعمرات وقادت ألمانيا الفريق الثانى وانضمت إليها إيطاليا واليابان وحالفتها إسبانيا وانتهت الحرب فإذا الرأسالية ممثلة فى كتلتين أمريكا وبريطانيا وذهبت اليابان وإيطاليا وضعفت كتلة فرنسا أمام صيحات موسوليني الذى مات بعد أمضى السنوات يقول :

« المستكفون لا يشعرون بحاجة غير المستكفين » وهذه مع أمبراطوريتها فى الجزء الشمالى من افريقيا موضوع هذا الكتاب .

(١) راجع : خطب ومؤلّفات موسوليني

Scritti e Discorsi, Benito Mussolini .

القسم الأول

فرنسا ومستعمراتها

هذا بحث تحاييل للاستعمار الفرنسي ومتابعه ، نعرض له بطريقة اجمالية ، ونستعرض بعد النواحي التاريخية والاقتصادية وأحيانا العسكرية مع الاشارة إلى الوضع الشاذ الذي كانت فيه المستعمرات الفرنسية بين المانيا والحلفاء مدة الحرب الماضية .

إن مالمقيته قضية فلسطين في أمريكا وأمام مجلس الأمن تجربة قاسية للعرب لأن الانتصار على الخصم يستلزم فهم الخصم والالمام بأساليبه . وفي هذه الكلمة أفكار وآراء قد لا تعجب بها ولكنها في صميم الدفاع عن قضية المغرب وحق شعوبه لأنها مستقاة من أقوال الخصم وهي مدعاة لفهمه ولن تلتصر على خصمك إلا إذا فهمته .

١ - فرنسا ومستعمراتها

كانت فرنسا دولة استعمارية كبرى في القرن الثامن عشر خضعت لسلطانها مساحات واسعة في أمريكا الشمالية ، وأكثر من منطقة

غنية من مقاطعات الهند ، ولكنها فقدت هذه المنزلة في حروب القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية فأخذت تجاهد طوال المائة سنة الماضية لكي تسترجع مقامها كدولة استعمارية ، ولقد برهنت تجارب أكثر من قرن على تعذر تحقيق السيادة البحرية لفرنسا ، وكان ضياع المستعمرات البعيدة في أمريكا والهند كافيا لاقناع الفرنسيين أنه لا يمكن ضمان الدفاع عن فرنسا دون أن يكون لها أسطول قوى يضارع ما للأمم الأخرى تمتلكه .

فكان مما فكر فيه نابليون أن يختصر الطريق البحرى الذى يفصل فرنسا عن الأراضى التى تخضع لها فقاد حملة مصر مؤملا أن يجعل منها قاعدة للتوسع الاستعماري الفرنسي بالشرق ، وكانت بريطانيا تعرف أن هذه الضربة موجهة إليها فى الهند فوقفت أمامه ، وقطعت الطريق البحرى عليه ، وأجبرت جيشه على الجلاء ، فالحملة الفرنسية على مصر كانت تجربة برهنت على أن الفن الحربى الحديث قد جعل من السهل التغلب على جيوش المسلمين فى أراضهم^(١) ، ثم فتحت الأذهان إلى استعمار الجزء الأفريقى المقابل لأوروبا ، فهى فاتحة الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر .

ولا تنس أن فرنسا حينما اضطرت إلى إخلاء مصر كانت تفكر فى العودة إليها وتأسيس الامبراطورية الاستعمارية عن طريق البرلمان

(١) راجع Hislôny of the Egyplion Revolution عن معركة الامرام .
A . . A . Paton التى ازال ما بقى عالقا فى عقول الاور وبين مدة قرون
عده من ان قوة المالك لا تقهر

تمكن ، أو قل على الرمال التي أراد أن يسير عليها لويس التاسع لفتح
مصر فلقى حتفه في تونس ولذلك اتجهت أنظار رجاها إلى بقعة من
الساحل الأفريقي تكون أقرب اليهم وأبعد عن إثارة شكوك ومخاوف
بريطانيا ، فلم تجد أقرب من الساحل بالجزائر ، اذ هو أسهل
طريق للعبور إلى أفريقية وأسلم ما يصلح لاتخاذ مرافقه مثل الجزائر
وهران وغيرها كرؤوس جسور للزحف إلى الداخل ، وقد خدمتها
الظروف حينما اشتد العداء بين مصر وتركيا فانقسم الشرق على
نفسه ، وخلا لها الجوفى الجهة التي تطمع بامتلاكها ، وحينئذ قدفت
بجيوشها بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ على القطر الجزائري في الوقت الذي
كانت جيوش مصر وتركيا تتقاتل قتالا كانت نتيجته أن انتهى
بالفشل للجانبين بينما اندفعت هي بقوة لترسيخ أقدام جنودها على
الأرض الأفريقية ، التي حملت أعلام دول الموحدين والمرابطين ،
وكانت في وقت ما موئلا للعروبة والإسلام فأخذت تحارب أهلها ،
وتشتتهم ، ولما انتهت حروب الأتراك والمصريين لم يكن بوسع أحد
الطرفين أن يمد يد المساعدة أو يجهر بالدعوة لنصرة المجاهدين من
قبائل الجزائر المدافعين عن بلادهم ، فكان أن سلم الأمير عبد
المعز للفرنسيين ، وإذا نحن أمام أول هزيمة للإسلام بشمال أفريقية
وإذا نحن في بداية الأرزاء التي أعقبت توغل الفرنسيين في المغرب
وننتج عنها تأسيس امبراطورية ضخمة في بلاد عربية .

٢. — أوروبا تشجع فرنسا في توسعها خارج القارة الأوروبية

وكانت فرنسا في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أقوى أمم أوروبا وأكثرها سكانا إذ بلغت ٢٥ مليون نسمة وهو عدد عظيم لما كانت عليه أوروبا في ذلك الوقت وبذلك تقابل السياسة الأوربيون بالاتجاه الجديد الذي سارت فيه ووجدوا أن من مصلحة السلام والأمن في القارة الأوروبية تشجيع هذا التوسع والتزام سياسة الصمت إزاء هذا العدوان لأنه سيؤدي إلى أشغال قوى فرنسا البرية وإلى توزيع جهود هذه الأمة الحربية في ناحية لا تضرهم خصوصا إذا وجد ضباط الجيش ورجال الجندية الذين أسكرتهم ذكريات الانتصارات الماضية مجالا لنشاطهم في بلاد بعيدة عن أوروبا ، بعد أن دوخوا أما كثيرة بحروب دامت جيلين ، وقد تم لهم ما أرادوا ، وقنعت فرنسا ورجالها بهذا الدور ، وزاد تمسكهم به ، خصوصا بعد هزيمة ١٨١٥ . وهزيمتهم في حرب ١٨٧٠ مع ألمانيا

٣. — فرنسا تجعل من أراضي افريقية معسكرا لتموين جيوشها وضباطها

فكان أن أصبحت فرنسا بعد عدة سنوات تملك الشاطئ الافريقي وتسيطر على مناطق وأقاليم متسعة في الصحراء تتنقل فيها كتائبها ويتدرب قوادها وضباطها بأنحاءها على أساليب القتال المختلفة

ويتلقون دروساً عملية باتخاذهم الحروب صناعة دائمة ضد الأهلالي ويمتعون أنفسهم بأدخال الجديد كل سنة على كتب التدريب والقيادة وأنظمة تعليم عساكر المستعمرات من الجنود الملونة .

وجاءت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وفرنسا ثانياً دولة استعمارية في العالم فخاضت غمارها وأعلامها تخفق على السكتائب المؤلفة من جنود المغرب ومدغشقر والهند الصينية والسنغال تسوق الآلاف منهم إلى الموت وتدفع بهم إلى الصفوف الأمامية ، ثم أمضيت معاهدة الصلح فإذا بمناطق شاسعة من أملاك ألمانيا الأفريقية تدخل ضمن نطاق الإمبراطورية الفرنسية أما عن طريق تعديل الحدود ، أو عن طريق الانتداب جزاء وفاقاً على المجهود الحربي الذي بذله جنود المستعمرات من السمر والسود في كفاحهم لتحرير العالم . فإذا نظرت إلى خريطة لأفريقيه نجد الإمبراطورية الفرنسية كتلة ضخمة ملونة بلون واحد تقع جنوب فرنسا وكأنها جزء متمم لها ، أو امتداد لأراضيها لا يفصلها عنها غير البحر الأبيض المتوسط ، ولكنه طريق سهل قريب لانه يجمع بين الشاطئين في ساعات معدودة ، وهذه الإمبراطورية أو المجموعة من المستعمرات تبدو أمام الناظر والبحر يحيط بها من ثلاث جهات المتوسط : في الشمال ، والمحيط الأطلسي في الغرب والجنوب ، ويفصلها عن بعضها الصحراء الكبرى

وهى فى صمتها وتحديها للإنسان لا تزال كالربع الخالى فى جزيرة العرب ، تسخر من الإنسان الذى لم يفك أسرارها بعد ولم يخضعها لإرادته فقد فكر المستعمرون فى استثمار أراضيها ، وفى اختراقها بعدة طرق مهيئة للسيارات ، أو إنشاء خط حديدى يقطعها من الشمال إلى الجنوب ، ولم يتحقق الآن شئ من ذلك لأن مجهودات فرنسا محدودة ؛ وهى لن تسمح لغيرها من الدول أن يتولى هذا العمل عنها ، ويخيل إلى الباحث أن هذا العمل الاستعمارى الذى بدأ بعد حروب نابليون طفرة فأصبح حقيقة فى عصرنا الحالى يبدو كعمل عظيم ساهمت فيه أمة برجالها ودمائها وتفكير أبنائها ، وأنه إن دل على شئ فهو يدل على عبقرية الذين جاهدوا فى انشائه وجمعوا بصبر شتاته فتمقوا لبلادهم حكم امبراطورية موحدة كافية لاسعاد أى بلد أوربى يمكنه أن يتحول باستغلال خيرات هذه الامبراطورية وثرواتها وأراضيها إلى بلد عظيم فى الصف الأول من العالم .

فهل وصلت فرنسا إلى أن تحكم بعقل وحكمة ودراية هذه الامبراطورية؟ وأن تحسن سياستها مع الشعوب التى تسكنها ، فتسعددها وتزيد من عدد سكانها؟ وتأخذ بيدهم فى طريق الحضارة ، والعلم ، والحكم الذاتى ، حتى تجتئ ما فى هذه الأراضى من الخيرات والثروات؟ الواقع أن فرنسا لم نوفق كثيراً فى مضمار الإستعمار كما يفهمه العالم الغربى ، وإن وفقت فألى حد لا يتناسب مع جهودها ، أو هو

ضئيل بجانب ما كان يمكن أن تصل إليه ، ذلك لأنها بقيت ولا تزال تعيش على أساليب الماضي في إدارة مستعمراتها ، وفي علاقاتها مع البلاد الخاضعة ، وإلا فلماذا يواجه الباحث في أنحاء إمبراطوريتها ما يشعره أنه داخل حصن كبير أو معسكر من المعسكرات وحوله نطاق من الأسلاك الشائكة يحرسه جنود من السنغال يسيطرون عليهم رجال أشداء ، أعظم همهم قطع كل العلائق بين هذه البلاد والعالم الخارجى ، ولا يعرفون سوى قانون البطش في علاقاتهم مع السكان . لماذا يلزم الناس هذا الشعور دائماً ؟ لأن عيوب الإدارة الفرنسية للمستعمرات ظاهرة واضحة ملموسة ، وموقف الحكومة المركزية وممثليها يشعرك باستمرار أن فرنسا لم تنجح كأمة حاكمة ولذلك لم تستطع أن تقدم دليلاً واحداً على رغبتها في تحرير الشعوب المظلومة ولا فى الأخذ بيدها فى طريق العلم والنور ولا فى إعطائها ما تطلب من حرية أو حكم ذاتى ، أو إشراكها فى إدارة الأمور العامة ، أو تسليم البعض منها إلى أهلها كما أنها لم تقدم للعالم برنامجاً إنسانياً يمكن أن يحقق شيئاً من ذلك .

إننا لا نقر الاستعمار على أى وجه من الوجوه ، ونراه نكبة على البلاد والأمم التى أصيبت به ، ولـكننا مع ذلك ننقل عن كتاب الغرب وعن الفرنسيين أنفسهم ما يعترضون به على هذه الإدارة

ونتساءل مع الباحثين : لماذا تطور العالم ووقفت فرنسا جامدة لا تتقدم ؟ ولماذا غمرت الدنيا موجات التحرير في أفريقيا وآسيا وتسالت إلى الأراضى الفرنسية وفرنسا وافقة لم تتغير ولم تستفد شيئاً من دروس الماضي ؟ ثم كيف تقدم على إقرار سياسة الاندماج والاتحاد في وقت تبدو فيه عراجل التفكك والانحيار ملبوسة واضحة ؟ أليس فرض سياسة الاتحاد دليلاً على إفلاس السياسة التي اتبعتها الحكومة الفرنسية ، والتي كانت ترمى إلى إلغاء الجنسيات والقوميات في بعض الجهات وصهرها في بوتقة واحدة ؟

٤ — نظريات استعمارية :

يقول الباحثون في الاستعمار وشئونهم : إنه كشرع تجارى يجب أن ينتهى بالكسب ، على أقصر سبيل وأهون طريق ، فليس من مصلحة الدول الحاكمة أن تتحمل تكاليف إدارة المستعمرة ، وحفظ الأمن فيها ، بل هي تساعد على أن تقف المستعمرة معتمدة على مواردها الخاصة ويكره المستعمر استعمال العنف والقوة ، ويعد التلويح بهما ضعفاً ، والالتجاء إليهما مخاطرة ، يتحاشى الوقوع ما أمكن فيها ، فهو كالتاجر الذى يحاسب على الدائى ويحسب للمستقبل ألف حساب ، ولذلك يعتمد فى حكم الشعوب على نفسياتها وفهمها ليستغل غرائزها لصالحه ، ولا يلجأ إلى السلاح إلا فى الوقت المناسب ،

وبالقدر اللازم ، وهو أسرع الناس الى ازالة اثر القوة من نفوس
المحكومين . هذه هي تجارب الأمم التي سارت في هذا النشاط شوطا
بعيدا فهل اتبعت فرنسا أو أخذت بهذه السياسة ؟ إن التقاليد التي
وضعتها حكومات فرنسا المختلفة في سياستها الاستعمارية كانت جامدة
وصعب في كثير من الأحيان على المسئولين تغييرها واستبدال غيرها
بها نعم عملت أحيانا للخروج عنها شخصيات قوية فرضت نفسها مثل
الماريшал ليوتي في مراکش ، ولكن سرعان ما عاد الروتين الاستعماري
الى قواعده وفرض أرائه من جديد .

ومن عيوب الاستعمار الفرنسي أن فرنسا بدأت حملاتها بتكاليف
باهظة أي أن كل قطر أو بقعة من الأرض دخلتها ، أو بسطت
حمايتها عليها كلفت دافعي الضرائب الفرنسيين مبالغ لا يستهان بها .
وقد جاءت تكاليف الفتح ثقيلة ، لأن الطبيعة الفرنسية تريد أولا
الغلبة والنصر ، فهي قد حكمت السيف حيث يلزم السيف ووضعت
السيف أيضا حيث كان يلزم غير السيف ، وفي ذلك مخالفة لقواعد
الاستعمار الذي يسمن البقرة ليستدر أكر كمية من البانها ، أما هي
فحينما حلت تحمّل الأهالي الكثير من الفقر والفاقة والعنت والتشريد
ولقد عهدنا المستعمر يتخذ له بطانة من أهل البلاد المستعبدة ،
يروضهم على أغراضه ، ويوسوس لهم بما يريد ، فإذا هم طوع اشارته

يصل بواسطتهم إلى أهدافه وأغراضه ، من غير أن تظهر نياته ،
أو تشعر بأنفسه ، ومن دون ضجة ولا جلبة ، وللاستعمار الفرنسي
من يخدمه باخلاص من زعماء البلاد الخاضعة له ، ولكن فرنسا
اعتادت أن تضع على أكتاف رجال فرنسيين من العسكريين
والمدنيين العبء الأكبر من المسؤوليات ، وأن تسند إليهم مباشرة
سلطات التشريع والادارة والتنفيذ ، فان أساءوا التصرف تحملت
هى عبء الأخطاء ، وخسرت عطف الناس بالدفاع عن رجالها ،
بينما قواعد المستعمرين تحتم على الدولة الغاصبة أن ترسم الخطط
الكبرى ، وأن تترك أمور التنفيذ لأهل البلاد ، يتولونها بأيديهم ،
حتى إذا أخطأوا ، وغالباً هم مخطئون - تراءت السلطات منهم ، وألصقت
الأخطاء بهم وأتت بفريق جديد يتولى تمثيل نفس الدور ، وهذا
النظام الأخير جعل عيوب الادارة الاستعمارية ملصقة بأهل البلاد
دائماً ، بينما النظام الفرنسي يضع العيوب على رأس الدولة المستعمرة
ويحملها الأخطاء والأعباء كما قلنا .

هـ - تأخر المستعمرات الفرنسية في ميدان الحضارة وأسبابه :

وهناك ظاهرة أخرى لها أهميتها ، وتكاد تنفرد بها المستعمرات
الفرنسية وما يشبهها من ممتلكات بعض الدول الأوربية ، التى
احتفظت بمستعمراتها كثرات تاريخي لماض قديم ، وهذه الظاهرة

هى أن التقدم المادى الذى صحب العالم فى السنوات الماضية والذى فرض نفسه على أغلب المستعمرات فى قارات العالم لم يشمل الإمبراطورية الفرنسية ، ولذلك إذا تحدث الفرنسيون عن مجهودهم الاستعماري وملاؤوا العالم بكتبهم ونشراتهم فهو مجهود عظيم من وجهة نظرهم وحدهم ، ولكنه مجهود متواضع إذا قيس بما قامت به الأمم الاستعمارية الأخرى ، فإذا نزلت بشمال أفريقيا وهى من البقاع الخصبة الغنية بمواردها وثرواتها المعدنية ، وقارنت ما عملته فرنسا هناك بالمجهود الذى بذله الاستعمار فى نواح مماثلة لوجدت أن مجهودها لم يصل إلى الدرجة التى تسمح بها حضارة القرن العشرين وبما تضعه بين أيدي الإنسان من وسائل تمسكه من السيطرة على الطبيعة ومن إخضاعها لإرادتها : والأمثلة على ذلك كثيرة إذ تجدها فى كندا وأستراليا وأفريقيا الجنوبية ، وزيلندة الجديدة .

٦ — تحليل هذا الوضع :

ويعتلون هذا النقص أن فرنسا بلد زراعى فى حياته الاقتصادية وهذا الوضع ينقص من طاقة فرنسا وامكانياتها كدولة عظمى ، ثم هى وطن المسكيات الصغيرة ولذلك يبرز فيها عامل اقتصادى هام هو عامل الادخار أو التوفير النقدي الشعبى الذى يعتمد فى تراكمه وازدياده عاما بعد عام على ملايين من الناس وقيل أن هذه الأمور

مجتمعة تؤثر في سياسة الدول حينما تواجه عملها في المستعمرات. لإستغلال مواردها وذكر بعض الكتاب أن فرنسا كانت تحسن صنعاً لو أنها من البداية فتحت أبواب امبراطوريتها لنشاط الدول الصناعية الكبرى ، مثل أمريكا الشمالية ، أو بعض الدول الأوربية ولكن رجال الحكم وأساطين الاستعمار حرصوا منذ زمان طويل على وضع العراقيل الجمركية والنشريعة لمنع حدوث هذا النشاط بل أقفلوا حدود امبراطوريتهم وجعلوا منها مناطق محرمة ومنوعة لأى تنافس يأتى إليها من الخارج .

ولا نشك في أن فرنسا كانت بلداً صناعياً من الدرجة الأولى وكان هذا في القرن الماضى ولكن ظهور الصناعة الضخمة وتطورها السريع في بلدان أوربية أخرى جعل منها بلداً صناعياً في الدرجة الثانية ولقد ذكرنا في بحث سابق أن التركيز الإقتصادى بين الدول الصناعية والمستعمرات أو بين المستعمرات وبعضها يعتمد على التفوق الصناعى والمقدرة الرأسمالية والانتاج الواسع رهى مجتمعة تمهد للدولة صاحبة الشأن أن تسيطر بالمستعمرات ومناطق النفوذ نحو التكتل الذى يجعل من هذه الدولة قوة عالمية ، أما الاستعمار الفرنسى فلا يزال في الدور البدائى الذى لم يتطور بهذه الوثبة ، ولعل شعور الفرنسيين بذلك هو الذى أملى على رجال السياسة مشروع الاتحاد الفرنسى الذى يحاولون تنفيذه .

٧ — فرنسا بلد زراعى :

وإذا نظرنا لحالها حالة فرنسا كبلد زراعى نجد أنها من أغنى البلاد الأوروبية ، بل إحدى الدول القليلة التى تعد فى حالة استكفاء بالنسبة لغيرها ، ومعنى ذلك أنها لا تعاني مشا كل ومتاعب لا طعام سكانها فهى ليست بحاجة إلى مضاعفة المساحات المزروعة فى مستعمراتها ، فإذا كان هناك بعض الأثر للتطور الانتاجى الزراعى وزيادته ، ويبدو هذا ملموسا فى بعض المناطق أو مكلا نسبيا بالنجاح فى المزارع التى يملكها الفرنسيون بالمستعمرات فإنه محدود الغاية والوسائل .

٨ — رءوس الأموال :

أما رءوس الأموال وكونها مجمعة من التوفير الشعبى فيبدو فى اتجاه أصحابها إلى تفضيل القروض الخارجية للدول الأجنبية الصديقة لتصورهم أن فى ذلك ضمانات أكبر من المجازفة فى صرفها على مشروعات فيها روح المغامرة بأراضى المستعمرات وهى قاعدة مستمدة من طبيعة الشعب وعقليته .

٩ — فرنسا كبلد صناعى :

ونعود إلى الناحية الصناعية إذ هى العامل الأساسى الفعال لكل سياسة استعمارية موفقة نظرا لما تحويه أراضى القارات البعيدة

من مواد أولية ضرورية للصناعات ، ولأن عظمة الدول الصناعية
بليت على ما تقدمه أراضي مستعمراتها من خامات رخيصة قد
تذهب أحيانا إلى تمكين كل واحدة من احتكار بعض هذه المواد
وحرمان بقية العالم منها . فاذا نظرنا إلى حالة فرنسا بعد أن انتهت
الحرب العظمى الأولى نجد أنه طرأ عليها بعد سنة ١٩٢٠ تغيير بعيد
المدى ، فقد بدأ يسيطر على مقدراتها طائفة من أصحاب الصناعات
الكبرى يدعمهم رجال المال ، واعتمدوا على ما يثبونه في الجماهير
من آراء وأفكار ، عملوا على أن تصبح بالتكرار راسخة وأهمها
فكرة أمن فرنسا وضمان حدودها أي إيهام الشعب بوجود خطر
دائم يهدد كيانه ليبذل مجهودا في ناحية معينة أو ليستعد لتلبية
التصحيات التي تتطلبها العمل لدرء هذه الأخطار .

١٠ - فرنسا قبل الحرب العالمية وبعدها :

ولم تكن فرنسا قبل سنة ١٩١٤ في حالة تمكنها من منافسة
الدول الصناعية الكبرى التي نضجت أو أتمت بناء هيكلها الآلى
الضخم لافى السوق العالمية ولا فى طريقة استغلال واستثمار أملاكها
وكانت تلجأ إلى وسائل شاذة لحماية تجارتها فى الأراضي المملوكة لها
فما بالك وقد بدأت بعد الحرب مباشرة تحمل أعباء إنشاء صناعة
على نمط الصناعة الثقيلة - يقصد بها صناعات الحديد والفولاذ

والصناعات الكيماوية الكبرى — ولو أن التعبئة المالية والفنية والإنشائية للوصول إلى هذه الغاية كافية لأن تستنفذ مجهودات جيل بأكمله .

وقد بدأ هذا المشروع يسير سيره الطبيعي من يوم استرجاع مقاطعتي الازاس واللورين ، إذ جعل ضم هاتين المقاطعتين بين يدي رجال الصناعة بعض ما كان ينقصها من مواد الصلب والحديد ، وياحبذا لو ضم إليها جزء آخر من أراضى المانيا وهو الروهر إذن لحصلت فرنسا على ما تحتاجه من الفحم الحجري .

يلتمس الكتاب الفرنسيون بعض العذر لبلادهم في تقصيرها الاستعماري الذي ينسبونه إلى أن هذا المشروع الصناعي الكبير الذي جعل رؤوس الأموال تتجه إلى تحقيقه ، اتجاها ترك النشاط في أراضى المستعمرات قاصرا على الضروري اللازم ، وعليه تأخر تنفيذ المشروعات الكبرى التي وضعت لاستغلال أراضى جبال اطلس بمراكش ونظر إليها وإلى غيرها نظرة ثانوية ، أو تأجل تنفيذها باعتبار أنها تكميلية للبرنامج الصناعي في أراضى فرنسا الأوربية .

وعليه فهم لا يسلطون بالنقص الذي بدأ من ناحية بلادهم ، ويقولون إن الفترة بين الحربين نقلت الدول الكبرى الصناعية

مرحلة نحو التكتل والتماسك مع المستعمرات بل ذهبت إلى إدخال الصناعات في أراضي المستعمرات نفسها كما حصل في الهند وأستراليا وأفريقية الجنوبية وبقية فرنسا تدير مستعمراتها بأساليب قديمة إلا أنها حسنا فعلت لأنها انتظرت الوقت المناسب لكي تستفيد من تجارب غيرها ، ولكي يحين الوقت الذي تندمج فيه هذه الأقطار في نظام اتحاد فرنسي يشبه من بعض الوجوه نظام الاتحاد السوفيتي ، وحينئذ تظهر للعالم فرنسا الاستعمارية القوية ، التي لم تضع منها سنوات الانتقال ، بل كانت تحضر برنامجا صناعيا للمستعمرات سوف تدهش العالم المتمدن به .

وسنرى هل وقفت لشيء من ذلك بعد الحرب العالمية الثانية أم لا تزال كما كانت في الماضي تدير امبراطورية ضخمة تقصر عنها جهودها ؟

ان سنوات الحرب الاخيرة قد اظهرت العيوب والمتناقضات واهم من كل هذه اظهرت القصور عن ملاحقة الغير .

وطبيعي ان هذا البرنامج الذي يشيرون اليه لن يتحقق بغير مساعدة الولايات المتحدة اذا طبق في يوم من الايام .

القسم الثاني

صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم

١ - فرنسا والحرب العالمية الثانية بين الديمقراطية والفاشية :

قامت الحرب العالمية الثانية وكانت فرنسا منقسمة في الداخل : فالروح الرجعية التي تفشت في عدة بلاد بأوروبا وأفريقية ، وآسيا أخذت في فرنسا مظهر العنف في مظاهرات الكونكورد سنة ١٩٣٣ وهذه الروح لم تكن قد ماتت في سنة ١٩٣٩ بل كانت تمثل مصالح وأغراض تلك الفئة التي أشرنا إليها من أساطين الصناعة الذين أخذوا على عاتقهم تنفيذ هذه البرامج ، وكانت هذه الفئة تؤمن بضرورة مسالمة برلين وروما ، لا حباً فيهما ، أو رضوخاً لإرادتهما بل لأن الوطنية تملئ بأنه يجب تحمل كل شيء في سبيل السلم ، حتى تستكمل فرنسا بناءها الصناعي ولو كان في ذلك الخروج من ميثاق عصبة الأمم ، أو إهمال المحالفات والضمانات القائمة .

٢ - صداقة بريطانيا :

يقابل هذه الروح تيار الديمقراطية ممثلاً في زوح الجماعات

والأحزاب السياسية والبرلمان ، وكانت جميعا لا ترغب في الاندفاع طريق إلى غير مأمون العاقبة ، يفقد فرنسا مركزها الأدبي كدولة عظمى ، إذا حثت بالمواثيق والضمانات المأخوذة ، أو ضربت بالمحالفات والمعاهدات عرض الحائط ، وبنقدتها صداقة حليفها بريطانيا ، تلك الصداقة التي بنيت عليها سياسة فرنسا منذ الاتفاق الودي عام ١٩٠٤ ، وأكسبتها المواقف الاستعمارية في مؤتمر الجزيرة ١٩٠٧ وأيام جادث أغادير في مراكش سنة ١٩١١ وكانت العامل الأساسي لكسب حرب ١٩١٤ / ١٩١٨

٣ — أثر بريطانيا في سياسة فرنسا :

وكانت هناك دواع تملئ باستبقاء تلك الصداقة من الجانب البريطاني نفسه . فقد ظهر جلياً بعد تقدم الطيران ، وموقف إيطاليا المعادي أن أراضى الامبراطورية الفرنسية ستكون في السلم والحرب الممر الطبيعي للطائرات البريطانية ، إذا تحاشت البحر الأبيض المتوسط . لم يكن من السهل إهمال علاقات هذا الجوار ، وما تمليه المصالح المشتركة للبلدين ، وما يفرضه تعايش حقوق الارتفاق بين الامبراطوريتين ، ولهذا لم تترك السياسة البريطانية هذه الناحية تسير طبقاً للأقدار بل مالت بقواتها وعبأت أساليبها المختلفة وعضدت الاتجاه المضاد للحركة الأولى ، وكان إن حكمت فرنسا حكومات

بقيت حريصة على تحالفه بريطانيا ، وترتب على هذا أن دخلت فرنسا الحرب العالمية الثانية بجانب الامبراطورية البريطانية .

ومن هنا نفهم حقيقة العرض الذى تقدم به تشرشل قبل تسليم يونيه ١٩٤٠ واقترح فيه إدماج الامبراطوريتين فى اتحاد واحد وهو العرض الذى توهم فيه الكثيرون بأنه كان عرضاً خيالياً لا يستند إلى أساس .

٤ — الحرب العالمية الثانية ٣٩ — ١٩٤٥ والمستعمرات الفرنسية .

جاءت الحرب وتتابعت شهورها الأولى . وتحملها الناس وطأتها على فرنسا ، وظهرت عيوب الأنظمة الفرنسية ، وتفكك الأحزاب الحاكمة ، وخيانة رجال الصناعة ، وقواد الجيش ، وتوالت الهزائم واضطرت فرنسا للتسليم عقب قتال لم يدم طويلاً . وكان أن طرأ حادث غريب فى تاريخ العالم جاء نتيجة لإبرام عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا سنة ١٩٤٠ وهو أن يحتل العدو بلداً أوريباً أوجزاء منه بجيوشه وتبقى أراضى المستعمرات من غير احتلال وليس فى ذلك من عجب إذا كانت الهدنة لوقف القتال ثم تعقبها مفاوضات الصلح وينتهى الأمر بإبرامه عقب فترة قصيرة من الزمن كما حدث سنة ١٨٧٠ ، أما أن تعقد الهدنة ويتضح من شروطها استثناء الامبراطورية الفرنسية وبقاء جيوش الجمهورية للدفاع عنها ويستمر ذلك شهوراً

ثم سنوات ما دامت الحرب قائمة فأمر جديد أثار الكثير من المشاكل كلها بعدت نهاية الحرب .

فهنالك فريقان يتحاربان حرباً مميتة . وهنالك أمبراطورية لدولة قبلت التسليم فما هو حكم الأراضي التي سلبت . أهى دار حرب . وقتال ، أم هى على الحياد ؟ لاشك فى أن القسم الفرنسى الذى يشغله العدو بجيوشه هو دار حرب .

فما هو موقف القسم غير المحتل وأهم جزء فيه تلك الأمبراطورية بأقاليمها المتسعة .

٥ — هدنة سنة ١٩٤٠ ومستعمرات فرنسا :

كنت فى بيروت عند بداية الحرب وبعد عقد الهدنة ، ولقد شعرنا وشعر الناس جميعاً أن الحياد الذى أرادت فرنسا أن تظهر به غير موجود ، ولا يمكن التمسك به نظرياً أو عملياً فقد كانت الطائرات الإيطالية والألمانية تضرب فلسطين وكان بعضها يصاب بنيران المدفعية ، فيضطر للهبوط فى أراضي سوريا ولبنان ، فالتحذت السلطات الفرنسية معها فى الحوادث الأولى الإجراءات التى ينص عليها باب الحياد فى القانون الدولى ، وكان للألمان لجنة عليا فى فيسبادن ، تشرف على أمور الهدنة وتفسر شروطها . أبلغت هذه اللجنة الحكومة

الفرنسية رسمياً أن شروط الهدنة مع ألمانيا لا تجعل من فرنسا
ومستعمراتها بلدا محايدا ، وما يسرى على المستعمرات يسرى على
الأراضي المشمولة بالانتداب^(١) ، وبناء على ذلك أفرجت السلطات
السلطات العسكرية الفرنسية عن الطائرات والطيارين ، وسمحت
بالمرور والنزول في المطارات ، فكان من بريطانيا أن قدفتها بالقنابل
ووجهت حملتها لاحتلال أراضي سوريا ولبنان .

٦ — حالة شاذة :

هذه الحالة الشاذة لأوضاع الأمبراطورية الفرنسية طول مدة
الحرب أوجدت في أراضيها نوعا من الحكم استفاد منه الفرنسيون
للقوف بين الفريقين المتحاربين ، ولو أنه أدى في النهاية إلى خسارة
أسطولهم ، واحتلال الألمان واليطاليان تونس ، إلا أن هذه الحالة
لفتت أنظار الفرنسيين جميعاً للأمبراطورية وأثرها وأهميتها ، وما
ينتظر منها ، وإنها قوة المستقبل ، ودرع الشعب الفرنسي ، وغير
ذلك ، مما كانت تردده الصحف وتذيعه الأنباء المختلفة من
محطات اللاسلكي .

انقسمت فرنسا إلى قسمين : حكومة فيشي وحركة الجنرال
ديجول . واتفق كلاهما على أمر واحد وهو الاحتفاظ بوحدة
الأمبراطورية ، وعدم التفريط في أي جزء منها ، وترجع الأخطاء

(١) أي أراضي سوريا ولبنان

وأعمال العنف التي ارتكبتها ممثلو فرنسا في القطرين الشقيقتين سورياً ولبنان إلى تمكن هذه الفكرة منهم ، تمسكنا أعمامهم عن تلمس الحقائق ومواجهة تطور العالم الجديد .

وأغرب من ذلك أن الحلفاء حينما وجهوا حملتهم إلى شمال أفريقيا قام الكتاب الفرنسيون بحملة قلبية في أنحاء العالم ، تقول : إن الامبراطورية وشعوبها قد قامت تشد أزر الجنرال ديغول ، وأنها سارت تحت لوائه لإنقاذ أراضى الوطن المحتلة ، واتخذوا هذه هذه الدعاية دليلاً على نفوذ فرنسا وقدرتها الاستعمارية . بل من هنا أخذوا ينادون بما صمموا عليه من إدخال سياسة الاتحاد الفرنسي وفرضها بقولهم : إن المستعمرات قد حلت عبء القتال عن الوطن الأوربي المحتل ، فهي إذن ساهمت في تحريره ومن حقها أن تندمج فيه وتكون وحدة معه وتنقل هنا ما كتبه بول أميل قيار لأول مرة سلم الوطن الأم وبقيت فرنسا تجارب في مستعمراتها .

٧- لماذا لم تحتل ألمانيا الامبراطورية الفرنسية :

إن السياسة التي أملت على ألمانيا ترك الامبراطورية الفرنسية تحت إشراف فرنسا بعد تسليمها لا تزال غامضة ، بل هي إحدى المعميات التي سيتسائل عنها مؤرخو الحرب طويلاً ، فقد تكون

For la première fois la Mère patrie a capitulé , mais la France a continué a combattre dans ses colonies .

هناك عوامل عسكرية أو سياسية فرضت هذه السياسة ، ومن المحقق أن هناك مفاوضات وأشياء لا يزال العالم يجهلها تماما .

فمن قائل أن التسليم قد تم على يد رجال يؤمنون بعظمة فرنسا إذا تخلصت من انظمتها الدستورية ، واتجهت اتجاهها فاشيا ، فمن الطبيعي تشجيع هذه الحركة وإعطاء هؤلاء الناس بعض النساھل ، بترك المستعمرات لهم ، ومن قائل أن الغرض الأساسي الذي رمى إليه هتلر هو أن يجعل الإمبراطورية الفرنسية يوما ما في صفه أمام الإمبراطورية البريطانية في إفريقيا وذلك لأن :

٨ — لفرنسا سياسة أوربية وللمستعمرات سياسة إمبراطورية :

يقول أصحاب هذا الرأي أنه إذا كان لفرنسا سياسة في القارة الأوروبية تعتمد على الأمن والضمان ، وهي تحتم التحالف مع بريطانيا وغيرها فإن للإمبراطورية بحكم موقعها الجغرافي ونفوذها وحاجاتها الاقتصادية سياستها الخاصة بها .

ويظهر ذلك جليا في أن الفرنسي في القارة الأوروبية يعالج المشاكل بروح تختلف عن روح الفرنسي بالمستعمرات الذي يفكر بالأسلوب الأفريقي الاستعماري وينظر إلى عظمة فرنسا في إمبراطوريتها ، نظرة بعيدة عن تطور السياسة الأوربية وما تفرضه من محالفات وصداقات .

فاذا تركنا جانبا المستعمرات البعيدة مثل مدغشقر والهند الصينية تبدو الامبراطورية الفرنسية لعقول هؤلاء كوحدة جغرافية لها أهمية كبرى، وهي في نظرهم كائن حي، له ما لفرنسا من مشاكل متعلقة بالأمن والحماية والجيش والبحرية.

وقد تتفق السياسة في مختلفان في الشؤون الخارجية. أما في الشؤون الداخلية فتدّظهر أثر الرجال الفرنسيين المقيمين بالمستعمرات في محاربة كل إصلاح يرمي إلى إشراك الوطنيين في الحكم^(١) بل فرضوا إرادتهم واجبروا الحكومة المركزية على تغيير سياستها مرارا، ولذلك توهم المختصون بشؤون الاستعمار أن لا يخرج لهم من هذا التعارض سوى سياسة الاتحاد، التي تجعل من فرنسا والامبراطورية كتلة واحدة في الخارج والداخل لها سياسة واحدة.

وكان من رأى الذين لمسوا هذا النزاع القائم أن المشاكل الإقليمية والحربية في سيرها وتطورها تواجه في النهاية مصالح الامبراطورية البريطانية في إفريقيا وأكبر ضربة طدم التحالف الفرنسي البريطاني تأتي من تشجيع فرنسا للأخذ بسياسة امبراطوريتها، في الأمور الخارجية وبنوا نظريتهم على ما يأتي:

(١) لا يزال هذا النفوذ قائما وهو يعطى ويقتضى على كل سياسة تقارب نحو انباء المغرب.

٩ — المتناقضات القائمة بين امبراطوريتين عالميتين

فقالوا ان سياسة الوفاق والصداقة سهلة وتبدو ضرورية في أوروبا ، ولكنها صعبة وغير محتملة في إفريقيا ، أو إذا سار التحالف بانسجام هنا فإنه لايسير أشواطا بعيدة في إفريقيا ، من غير أن تبرز المتناقضات وهي الأمور التي تطور الى مشاكل أزمات ، فيستعصى حلها ، لأن مردها إما إلى السياسات العليا أو إلى القواعد الثابتة لطبائع الأشياء ، وعلى هذا الضوء تبدو حوادث سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ ومشاكل بريطانيا في طرابلس الغرب ، وبرقة في الوقت الحاضر ، وتعذر إيجاد حل لها .

١٠ — أمل المانيا في استغلال التنافس بين الدولتين

كان الألمان على إلمام تام بالحالة النفسية والعسكرية في الجيش الفرنسي ، وبما يمكن أن تؤديه الفرق المكونة من الجنود الافريقية وعلى يقين من طاقة هذه الشعوب المستعبدة ومقدار صلاحيتها للحروب الحديثة ولذلك أبقوا على وحدة الامبراطورية الفرنسية وتركوها بيد الفرنسيين احتملوا ابقاءها لأنهم توهموا ان التنافس بين البريطانيين والفرنسيين قد ينقلب إلى عدااء وقد مرت حوادث كانت نتيجة التصادم والقتال ولكن الامبراطورية الفرنسية لم تتحرك ، بل إن القتال الذي نشب في سوريا ولبنان انحصر هناك

(١) حررت بريطانيا اراضي سوريا ولبنان وهي تحاول إيجاد حكومة في برقة وطرابلس فتقاومها فرنسا . هذه المتناقضات مما يتعذر الاتفاق عليها

أما من الناحية الفرنسية فقد تمكن الأمل من القواد والساسة لدرجة أنهم توهموا أن لديهم القوة الكافية للدفاع عن الامبراطورية اذا هوجمت وحشدوا وحداتهم البحرية في شمال افريقيه أملا في الخروج إلى السلم بالسيادة على البحر وحدود المستعمرات كما كانت قبل الحرب بل كانوا يتبجحون بأنه إذا لزم الأمر أن يقبلوا التضحية عند إقرار السلم مع المانيا فليكن التضحية من الأراضي الأوروبية إذا ضمنوا المحافظة على وحدة أملاكهم الافريقية التي هي المدى الحيوي التاريخي للشعب الفرنسي وهو الزم لهم من مقاطعات الشمال . ومن الغريب أن هذا الأمل الألماني وهذا المنطق الفرنسي ترك شمال افريقية في حالة سهلت للحلفاء احتلالها واتخاذها بمرافقها لجمع قواتهم التي زحفت الى قلب اوربا فكان أن ساهمت الامبراطورية الفرنسية في تحرير اوربا بل في تحرير العالم ولكن كبقعة متسعة من الأرض استعملت كمسرح للحوادث والمعارك كأي بقعة من بقاع الشرق الادنى .

١١ - الحلفاء يسيطرون على أملاك فرنسا ثم يعيدونها إليها

تمزق السور الفولاذي لأول مرة عند دخول الحلفاء وقواتهم أراضي شمال افريقية فرأى اهل مراکش وتونس والجزائر جنودا من عناصر اخرى غير فرنسية ولا بد انهم لمسوا وعانوا اشياء جديدة ولكن البلاد التي خضعت لسنوات عديدة لأعمال العنف

والتشريد كانت تتمخض بانبعث جديد ووثبة شاملة ولم تكن حملة الحلفاء لتخلق هذا الوعي القائم لولا أن لهذه الشعوب من الشخصية والتاريخ ما يجعلها تحس وتشعر بالرسالة التي تحملها للعالم وجاءت حملة الحلفاء لهذه الأرض بأساطين العالم وكانت مقر مؤتمرات وعرف الناس جميعاً أن اراضي تونس والجزائر ومراكش أصبحت مديعة في يد الحلفاء وقد اعيدت لفرنسا بعد أن تعهد رجالها لروزفلت أن تسير هذه البقاع في ركب الحضارة نحو الحرية وتقرير الصبر كغيرها من بقاع الدنيا التي يسكنها الانسان لا الحيوان

(اعود الى الوراء ام عصر جديد) هذه كلمة الاستاذ اسماعيل مظهر حينما عرض الى مشروع الاتحاد الفرنسي ونحن نتفق معه في صيحته ونقول

ان الخطر الذي يبدو لنا هو ان توفق فرنسا في اقناع العالم ان الاتحاد الفرنسي هو مشروع انساني يدعو الى رفع مستوى شعوب الامبراطورية ويعد تنفيذه تحقيقاً لما وعدوا به روزفلت في اجتماع الدار البيضاء وانه مرحلة في طريق الرقي الاجتماعي كما تعهدوا^(١) . ولكن فكرة الاتحاد قديمة وسنعرض لها في الجزء الاخير من هذا البحث ونبرهن انها اخطر بكثير مما تتصور وانها ضربة موجبة لاستقلال الشعوب وحريتها ومستقبلها وانها اخطر طعنة يوجهها الاستعمار الأوربي في افريقيا موطن الشعوب المظلومة .

(١) تبدلت الأوضاع في السنوات الاخيرة وحدث ما كنا نخشاه .

القسم الثالث

في طريق الاتحاد الجبرى

١ - إن العالم الإسلامى فى يقظته وفى كفاحه ضد الاستعمار الانجلو-سكسونى والأوروبى والصهيونى يواجه ثلاث هيئات اتحادية الاتحاد السوفيتى فى الشمال ، والاتحاد الفرنسى فى المغرب ، والاتحاد الهندى فى الهند . وكل اتحاد منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية ^(١) .
يصبغها بصبغة التحرر ^(٢) ويريد كل منها أن يقنع العالم أن هذا الاتحاد جاء وليد إرادة شعبية ، وأنه فى مصلحة هذه الأمم وفى الهند يأخذ الاتحاد شكل حركة قومية كبرى ، ولو كان الأمر قاصرا على المناطق التى يسود فيها الروس والفرنسيون والهندوس لما أثار ذلك اعتراض أحد من الناس .

٢ - ولكن الباحث المدقق لا تغريه الألفاظ والمظاهر إذ يتبين له أن كلا منها ينتزع أقطارا شاسعة ، ويحاول أن يضم أما إسلامية ،

Progressiste (1)
D' Emancipation (2)

لا تمت بصلة إلى الاتحاد الذي يفرض نفسه فرضا عليها ، ولذلك لا تلبث أن تنكشف حقيقة هذه الأنظمة الاتحادية ، حينها يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، إذ تبدو لنا هذه الأنظمة في ثوب قوات رجعية ^(١) تعسفية ^(٢) لا تمنح للمسلمين حريتهم وحقهم في تقرير مصيرهم ، بل تجعل للتحكم والسيطرة والاستغلال الاقتصادي شكلا جديدا براقا لا يفتريه إلا الواهمون. فالإتحاد الفرنسي يحاول بقوة التشريع ضم أراضي شمال أفريقية وسكانها ، وهم أكثر من عشرين مليونا ، لهم تاريخهم وثقافتهم وشخصيتهم ، دون أن يسمح لهم بأبداء رأي في هذا الاتحاد . والإتحاد السوفيتي يضم أكثر من أربعين مليونا من المسلمين الآسيويين لا يسمع لهم صوت ، ولا يسمح لهم بالاتصال بالعالم الخارجي . والإتحاد الهندي يحارب كيان دولة الباكستان الإسلامية ويحاول القضاء عليها وإبادة الاقليات الإسلامية أو أضعافها .

٣- ولا يمكن للعرب في إفريقيا والمسلمين في آسيا قبول وضع من الأوضاع يجعل منهم أقلية في بقعة من بقاع الأرض ، لأن تجارب الماضي كانت شديدة الوقع عليهم ولذلك فهم لا يسلمون للأقدار أن تتحكم فيهم مرة أخرى ثم هم أصحاب مجد وتاريخ وصولة على

Rétrograde (1)

Arbitraire (2)

هذا الكوكب الأرضي ، وهو تاريخ حافل بأيام العراق والكفاح والنصر والهزيمة، وهو في قوته وبروزه وأثره لا يمكن أن يقارن به تاريخ أى أمة من أمم الأرض مهما علا كعبها في الحضارة . وقد ألقى علينا هذا الماضي درساً قاسياً لا يمكن أن ننساه ، فتحن قد فقدنا ملايين من العرب في أسبانيا ، وجزائر صقلية ، وسردينيا ، وكريت ، ومالطة كانوا عرباً دخلوا هذا البلاد واستوطنوها ؛ ثم زالت أيامهم ، فأدججوا بالسيف في جنسيات وأديان أخرى ، ولا تزال دماء العروبة في عروقهم إلى اليوم وهناك ملايين من المسلمين كانوا سادة في القرم ، ورومانيا ، والبلقان ، فأين هم اليوم؟ إنهم يوم أن أصبحوا أقلية أفناهم الظلم والاستبداد. (١)

؛ - ولهذا فكل اتحاد يفرض بالقوة على أقطار المغرب وشعوبه العربية ويحول بينهم وبين جامعهم هو حركة استعمارية رجعية تعسفية تستهدف إفناء العروبة والإسلام ، والوقوف أمام نهضة الشعوب العربية في مراکش وتونس والجزائر وأضعافها كقوة فعالة في تاريخ العالم ، ولذا وجب على كل فرد منا أن يفهمها على حقيقتها ، وأن يشعر بالأخطار التي تهددنا من هذه الناحية ، وأن نحشد كل مالدينا من القوى الروحية والعقلية للوقوف أمامها حتى يشعر العالم أجمع أنه ليس في عزمنا نحن معاشر الأمم الإسلامية والعربية أن نفنى

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين التي لا تعادلها غير نكبة الاندلس

بهذه السهولة من الأرض فتذهب ريجنا لدى الصدمة الأولى .
هـ — وقد عرضنا في القسمين المتقدمين لمصاعب الاستعمار الفرنسي ،
ولمسنأ تأخره عن ملاحقة العالم ، وكشفنا عن إفلاس
فرنسا كدولة حاكمة وقلنا : إن هذه الأمور جهر بها كتاب
الغرب ، وسلم بها الفرنسيون أنفسهم ، أو فريق منهم ، وكنا نقدم
للقارئ ما يحول بنفسية الفرنسيين من آمال وسط هزائمهم ، وبعد
أن ظهر للعيان تنصيرهم وكنا نرمي بهذا أن نضع الحتمات مجردة أمام
القارئ ، حتى يكون على علم بأقوال الخصم ، وما يدخلها من غرور
ووعيد ، وغايتنا من ذلك أن ينهم العالم العربي أن محاربة الاستعمار
تستلزم الوقوف على أساليبه والألمام بطرقه ، وأن الدول الخاصة
مهما كانت سياستها غاشمة ومع ما بين أيديها من وسائل القمع تحاول
أن تفرغ هذه السياسة في قالب يقبله العقل ويسلم به ، فعلى الذين
نصبوا أنفسهم للجهاد أن تتسع صدورهم لأقوال الخصم ، وأن
يروضوا أنفسهم على الحقائق ، وإن كانت مرة ليتسنى لهم تحقيق
مارسموه لأنفسهم ومبادئهم من أهداف .

٦ — والدول الاستعمارية لا تفهم ما نقرر ولا نفسنا ، بل لا تسلم به
وإنما لديها المنظمات التي ترافقها بكل صغيرة وكبيرة عنا ، وهي لا تنوى
أن تنازل عن أملاكها ومستعمراتها أو تفرط في حق من حقوقها .

إلا بالقدر الذي تنتزعه الشعوب منها . وهذه الشعوب في تقدمها نحو الوعي القومي واليقظة تؤمل في أن تتشبع بالحقائق حتى لاتذهب جهودها وضحاياها هباء^(١)، ثم هي تروم أن تحقق لها مجداً وأن تسير في طريق التحرر والخلاص ، وأن تعالج مشاكلها على ضوء العلم ووضع الأمور في نصابها، فعلى المتصدرين للحركات العامة أن يهيئوا لأنفسهم للقيادة ، ولا يكون ذلك بغير العلم والبحث والدرس ، وتتبع الدول الاستعمارية والكشف عن أغراضها ومراميها ، والوقوف موقف الحريص على حقوق هذه الشعوب بل موقف المتيقظ للدفاع عنها أمام الضمير العالمي .

٧ — وقف في القرن الماضي بعض الكتاب الأنجليز ، يتحدثون عن أعباء الرجل الأبيض ومسئوليته إزاء الشعوب المحكومة ، فقالوا إنه يحمل عبئاً ثقيلاً هو قيادة هذه الشعوب نحو الحضارة والتقدم ، وفي نفس الوقت أطلق كتاب أوربا على دولة آل عثمان اسم رجل أوربا المريض ، فمن كان ينتظر بعد مضي سنوات ان تتبدل احوال السكون ، وان تصبح الأوضاع مقلوبة ، فإذا الامبراطورية الفرنسية هي الرجل المريض الذي تخشى الدول الغربية وفاته ، وإذا من أعباء الرجل الأبيض ممثلاً في الحكومات الانجلوسكسونية وبريطانيا وأمريكا حماية امبراطورية مريضة في

(١) كما حدث لاهل فلسطين

حالة النزاع والمحافظة على وحدتها ، وأحيانا مجاملتها على حساب حرية الأمم المغلوبة على أمرها ؟

٨ — إن الأسلحة والمعدات الحربية التي تسلبها من هذه الدول لم تستعملها في قتال الألمان ، وتحرير البلاد منهم ، وإنما وجهت الى صدور الشعوب المظلومة في مدغشقر والهند الصينية ، وهذا العناد سيستعمل يوما ضد أمم العروبة في المغرب فما الثمن الذي قبضه الرجل الأبيض ؟ أهو تحطيم السور الفولاذي حول المستعمرات امام نشاطه وفتح حدودها واعتبارها أسواقا تجارية له ؟ وما الذي كسبت فرنسا الأمم الحنون أ كسبت الجمد الدائم للسيطرة وأن تمر العمليات والصفقات بطريق باريس ، بدلا من أن تتجه رأسا الى أراضي المستعمرات وهل في سبيل ذلك يستلم الرجل الأبيض بقاء فرنسا مدة أخرى في شمال إفريقيا محتفظا لنفسه بحق الرجوع مرة ثانية اليها إما لتحريرها أو للمساعدة في تهدئتها . هذا ما سنكشفه لنا الايام في المستقبل القريب .

٩ — في الوقت الذي كان رجال فيشي يفضلون فيه التضحية بأراض من فرنسا ، محافظة على وحدة املاكهم الإفريقية كان الفرنسيون الأحرار يفكرون تفكيراً استغيارياً من نوع آخر ، فقد عقدوا قبل نهاية الحرب مؤتمرا لهم في مدينة برازافيل بإفريقية ، جمع عددا

من حكام المستعمرات تبادلوا الرأي فيما بينهم ، واتخذوا قرارات بشأن سياسة المستقبل ، بعد أن استعرضوا مسائل هامة :

منها العمل على رقاهية السكان الوطنيين ، ورفع مستواهم المادى مع تحسين حالتهم الفكرية والاجتماعية ، وعرضوا لمسائل التعليم ، وأثر الدين ، وتوزيع العدالة ، ثم بحثوا مسائل الحكم الذاتى ، والإدارة المباشرة ، وغير المباشرة . واتخذت قرارات سرية نحو وحدة الأمبراطورية ، والسير بها فى طريق الإتحاد الفرنسى .

١٠ — وهذه القرارات هى التى نقلوها معهم إلى الجزائر ، وأدجوها فى مشروع الدستور الجديد . فعلى الذين يدرسون هذا الإتحاد أن يرجعوا إلى بحث قرارات هذا المؤتمر الاستغبارى وأبحاثه وأهدافه ومراميه .

ان فرنسا تعرف جيداً ان مستقبل الاستعمار والقارة الافريقية مما يشغل بال منظمة هيئة الأمم المتحدة الامم وتؤمن أن الاستعمارية لا تكافح عن املاكها بالكتائب والمال والسلاح فقط بل بالعقل والمنطق والعلم . اننا يجب ان ننظر الى مؤتمر برازافيل على انه محاولة فرنسية لابقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها كاملة غير منتهية .

القسم الرابع :

فكرة الاتحاد تواجه المصاعب

١ - فكرة الاتحاد الفرنسي قديمة ، عبر عنها جبريل هانوتو بقوله :
وحدة الامبراطورية . وحدة الإدارة والتشريع والعمل . وحدة
الشعور والارادة الحرة . ليست بالعنف والقوة والفتح ولكن
باللين والترغيب تتم الوحدة الفرنسية . وتتميز آراؤه بخطورتها على
الأمم المغلوبة ، وأثرها في نفوس الفرنسيين وسرعة تغلغلها في أوساطهم

٢ - جبريل هانوتو من كبار رجال فرنسا ، ظهرت مزاياه وشخصيته
في أعماله وكتابته وأقواله . فإذا هو يؤثر في جيل بأكمله من الناس
كتب كثيراً عن تاريخ فرنسا وأمجادها ، وعرف الناس ما لم يعرفوا
عنها ، وكتب عن تاريخ الأمة المصرية ، وأشرف على إخراج كتاب
على الأسلوب الذي يروق له والمستشرقين . وهو رجل دائم الانتاج
شئ يترك عملاً من أعمال الخلق إلا كتب فيه ، ولا نشاطاً إلا جال

فيه وصال . كان من أولئك الذين يعملون بالمثل اللاتيني القائل (١):

Homo sum Humani Nihil a me alienum puto

(إني بشر ويخيل إلى أن لأشياء فيما يتعلق بالإنسان غريب
عنى .)

فكان من الطبيعي والضروري أن يلفت الاستعمار الفرنسي
أنظار الشيخ ولذلك كتب فيه وأطال وهو القائل في كتاب له
عنوانه (من أجل الامبراطورية الفرنسية)

هل ترغب فرنسا أن تحيا حياة الأمم الفتية الناهضة ، أم ستلحق
بغيرها من الأمم الفانية التي ذهبت ريحها ؟

هل ستفنى كما فنيت بيزنطة ؟ وهل تتبع قرطاجنة وتلقى مصيرها ؟
إذا عاشت فرنسا بعظمتها وقوتها وأمجادها وهذا مالا شك فيه
(هذا قوله هو) فلتكن متجهة بنشاطها وفكرها وعبقريتها إلى
مستعمراتها .

هناك تبرز شخصيتها الخالقة المبدعة وتنمو علائقها مع تلك
العائلة التي جمعتها حولها . عائلة المستعمرات الفرنسية .

(١) من أطرف ماترك مفكرو العرب في هذا المعنى قول الجنيد بن محمد الجنيد
الزاهد المعروف ما اخرج الله الى الناس علماً وجعل لهم اليه سبيلا الا وجعل
لى فيه حظاً ونصيباً

كانت صيحة وبرناجا قذف بهما هذا الشيخ الفاني فتأقهما
رجال الاستعمار قال هذه الكلمة بعد أن أمضى السنين يدرس
ويبحث ويقيد ويسجل .

وخطر هانوتو أنه رجل من رجال الفكر والدهاء ، يجمع بين
البحث والعلم والفلسفة ينظر للاستعمار نظرة المحلل الطاغية الذي
لا تتطرق الرحمة إلى قلبه .

كان هانوتو داهية من دهاة الفرنسيين تلس روحه وأنفاسه في
كل جهة ، دون أن تظهر شخصيته ، فهو من أولئك الذين يضعون
الخطط لبلادهم مدى سنوات بعيدة ، ويرسمون لحكوماتهم برامج
السير مع الأمم التي نكبت بالاستعمار ، وهو مثل من كثير غيره ،
ولكن لسكرة ماقرأت عنه أراني في حل إذا وضعته في صف
دوفرين السفير البريطاني في اسطنبول وملتر صاحب المشروع
المشهور وكلاهما من دهاة الاستعمار البريطاني الذين وضعوا الخطط
الطويلة المدى لبلادهم ، ولا تزال نحن بمصر نجاهد للخروج من
نطاق تقرير دوفرين من الشؤون الدستورية ونكافح للخروج من
دائرة ملتر في الناحية السياسية .

ولا تعجب من تقرير ذلك . فإن الاستعمار الأوربي في نكباته
ومصائبه لا يعد شيئاً بجانب مقدرته على التطور ، والظهور بألوان

(١) وضع هذا التقرير قواعد الإصلاح والتوجيهات للسياسة البريطانية .

مختلفة ، وهو أكبر نشاط إنسانى قام به البشر منذ الخليقة إلى اليوم بل هو دعامة المدنية الحالية ومظهر قدرتها وتفوقها . بل لا نبالغ إذا قلنا إن مظاهر الترف ومستوى الحياة الراقى لدى جماعات من الأوربيين سوف تنهار أو تهبط بتفكك الروابط بين بلادهم والمستعمرات ، ولذلك نجد الدول الأوربية اليوم أشد تمسكاً بهذه الروابط من أى عهد مضى . ونرى أنها نجتهد أن تسالم الحركات القائمة وتسارها وتخضع لبعض مطالبها ، حتى تحتفظ بما لها من سيطرة على هذه الشعوب . وهذا الاتجاه هو أخطر ما يواجه الأمم الإسلامية الناشئة لأننا لن نتغلب على الاستعمار إلا إذا فهمنا هذا النوع من العمل الإنسانى^(١) ، ولن نصل إلى الخروج عن نطاقه إلا إذا بعث الله لنا من أنفسنا رجالاً أقوياء أشداء ، يدفعون عنا ويلا تهم بعزيمتهم وقوتهم ولهم من الفكر والمضاء فى الحق ما يمكنهم من نقلنا من حالتنا التى نحن فيها ، إلى حالة تقرب من المنطق والمعقول ، أو تكون أقرب إليهما من الحالة التى نعيش فيها اليوم .

وأعود إلى هانوتو فأقول : إنه قد لا يكون أول من نادى بفكرة الاتحاد الفرنسى ، فقد يكون هناك غيره ممن تقدمه وسبقه ولكنى أعجب به من ناحية أنه من فلاسفة ومفكرى الاستعمار ، الذى لمسوا تقدم الدنيا ، وتذهبوا لما قد تأتى به الأيام ، فتقدموا بآراء ومشاريع وأفكار لم تكن بعيدة عن الحقيقة .

(١) نسبة الى الانسان لا الى الانسانية .

ثم هو مع دهائه وفكره وبصيرته لم تشغله مظاهر الدنيا والثراء وحب النفوذ كما شغله حب بلاده ، ورغبته في بقائها تتحكم على روع المستعمرات وفي رقاب أهلها ، وهو حينها يكتب وينشر آراءه وسمومه لايهمه شخصه ، وإنما يؤمن بشيء واحد هو بقاء سيطرة فرنسا على مستعمراتها .

فهو يسلم بأن بناء الجماعات متوقف على الأنظمة ^(١) التي تربطها وهذه يجب أن توضع على أسس صالحة قوية ، بل إن الأنظمة هي روح الجماعات بقدر صلاحها تصلح الجماعة ، وإذا فسدت أنهار كيان الجماعة .

ولهذا فالامبراطورية في نظر هؤلاء كائن حي ، يجب أن يعيش وينمو ، وإن قوته مستمدة من الأنظمة التي تربط المستعمرات بالوطن الأم ، وإن أنظمة الحكم يجب أن تتطور مع الزمن حتى لا يعتورها ويصيبها الجمود وهو علة المجتمعات والداء العضال الذي يصيب الامبراطوريات ويقضى عليها ، كما قضى على ملك روما وبيزنطة وغيرهما .

فهذه الفلسفة الاستعمارية لم تقف عند حد النظريات ، بل أخذت تحلق في العلاقات بين الدولة الحاكمة والأمم المغلوبة وتتخذ طريق التجربة والاستقراء في مختلف النواحي .

وحقيقة للعالم هي أن السيطرة الأوروبية سواء أكانت فرنسية أو غيرها سادت العالم وشعوبه ، واحتلت المكان الأول وفرضت إرادتها أينما حلت إلا في الجهات التي ساد فيها الإسلام ، فهناك واجهت المصاعب واضطرت أن تسير على حذر وعلى قدر ، ولذلك تلقى الإسلام والعرب أكبر الطعنات في التاريخ ، وفي سبيل هدمه أعطى ذلك اللون البراق للمدنيات القديمة ، التي انقرضت في مصر وبابل واشور وفارس ؛ وهذا يفسر لنا تهجم هانوتو وغيره على العرب وطعنه على تاريخهم ووصفه للإسلام بأنه عدو للعلم والمدنية .

لأن الضعف يوجد تسليماً وخضوعاً . وهذا ما تم في ربوع أفريقية السوداء ، أما حيث ساد الإسلام فقد وقف المسلمون يقارعون الإستعمار وجهاً لوجه وبقي خطر الدعوة المحمدية ماثلاً أمام المستعمرين ، ولذلك كثر أعداؤنا لأننا أقوياء ، والقوى يخلق أعداء لنفسه ، ومن هؤلاء جبريل هانوتو الذي تولى يوماً الإمام محمد عبده دفعه عن الإسلام في كتاب له مشهور ومواقف مشهودة .

ويذكرني هذا بما قرأته في مقدمة كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء الذي كتبه أنريكو انسباتو (يقف العالم الإسلامي في مواجهة أوروبا موزعاً بين أملاك الدول المختلفة والقوميات الحديثة يقاوم

بشدّة وعنف وعناد معتمداً على وحدته الدينية وصبغته العالمية التي تعطي حركاته مظهراً ينفرد به دون غيره).

وعلى هذا رسمت الخطط لاستبعاد الإسلام ما أمكن من المناطق التي قد يسود فيها وفي هذه الناحية بالذات ظهرت قرارات المؤتمر برازافيل ، تتفق مع قرارات حكومة السودان بشأن التضييق على حرية العبادة ، ومنع تغلغل الإسلام في أفريقية الوسطى ، وهذا مما يجعل للإسلام قضية سوف نعرض لها يوماً لعرضها على الضمير العالمي ولم تكن فرنسا بحاجة إلى إعلان الإتحاد الفرنسي والدعوة إليه ، لو كان الأمر متعلقاً بالمستعمرات الإفريقية وحدها أما والأمر متعلق بشمال أفريقية حيث يتسود الإسلام لذلك قامت أمامها العقبات وحشدت القوات للتغلب عليه .

وقد كان من أيسر الأمور عليها فرض الثقافة واللغة والدين والاسماء الفرنسية وإيهام الجنود السود^(١) أن آباءهم من بلاد الغال وإنهم فرنسيون دماً وروحاً وفيهم من يصدق ويتحمس لذلك .

أما والإسلام والعروبة بالمرصاد ، هنا يبدو الإتحاد متردداً يسير بخطوات وثيدة ويستنير بأراء هانوتو وغيره ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب الإسلام وسياسة الحلفاء :

(أصبح للإسلام سياستان : واحدة استعمارية ، تتعلق بالمستعمرة

(١) كتب شاوويش سنقالي بالجيش الفرنسي موضوعاً تاريخياً فقال « إياي

من سكان أرض الغال »

وأخرى عالمية تتبعه وتلاحقه في مشارق الأرض ومغاربها ، وهما يلتقيان في ناحية واحدة وهي إبعاد الأخطار ما أمكن تلك الأخطار التي يسببها للدول الأوروبية وجود ملايين من المسلمين على الأرض يمثلون في أفريقية خطرا لا يستهان به ، نظرا لازديادهم عاما بعد عام في القرون الماضية فقدت فرنسا مستعمراتها ، لأن البحر كان فاصلا والمسافات بعيدة ، واليوم تحاول فرنسا فرض إرادتها على أقطار شاسعة ، فإذا الاسلام أبعد غورا من البحار والمحيطات ، وهي لم تقدر عليه ، لأنه من نور الله ولذلك ستسير شعوب الجزائر وتونس ومراكش نحو التحرر والخلاص ، رغم المصاعب التي تقيمها فرنسا وحكوماتها المختلفة ، واتحادها ووحدةها ، لأنها شعوب اسلامية عربية قوية لا تلين .

وها قد استعرضت فرنسا انواع الاستعمار المختلفة ، وبدأ لها الاستعمار السوفييتي الروسي بلون خلاب ، وخيل اليها أنه قد قضى نهائيا على نفوذ الاسلام في ربوع اسيا الوسطى ، وفي هذا خطأ كبير ، فأرادت أن تستعين بأساليبه في هذه الناحية وفي بعض النواحي الأخرى ، ولذلك ترغب أن تؤسس اتحادها على شكل يشبه اتحاد روسيا .

[وسنعرض بعض قليل للاتحادين في أول الفصل التالي] .

القسم الخامس

ما بين الاتحادين الفرنسي والسوفييتي من تشابه

ما كنت أعتقد حينما كتبت الكلمة الثالثة عن الاستعمار الفرنسي والتي أشرت فيها إلى ثلاث هيئات اتحادية تقف أمام الأمم الإسلامية وحربتها أن تبرز المتناقضات بهذه السرعة فقد وضعت الاتحاد الهندوكي بجوار الاتحاد الفرنسي والاتحاد السوفييتي وقلت عنها أن كلا منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية يصيغها بصيغة التحرر، ويريد أن يقنع الضمير العالمي أن الاتحاد هو وليد إرادة شعبية، وأنه من مصلحة الأمم والشعوب الداخلة فيه، ويعلم القائمون بأمر كل اتحاد منها أن هذا بعيد عن الحقيقة بعداً تاماً، ولذلك سيكون كفاح الأمم الإسلامية في طريق الاستقلال والتخلص من هذه السيطرة الاتحادية المفروضة عليهم شديداً في الهند والمغرب، قاسياً جداً في أواسط آسيا، ولكني مؤمن وواثق باننا ستغلب

لا لأن الحق معنا وكفى ، بل لأن قوانين الكون الملازمة لطبيعة الأشياء وتجارب التاريخ معنا ، وستذهب قوات الطغيان التي تستعبد المسلمين أو تحاول ذلك هباء منشورا ، وتندك صروح بنيت على تضليل الناس .

ومن قبيل هذه الثورة القائمة علينا البرقية التي جاءت بأن البنديت نهرو يحذر الأمم العربية ويقول (إننا لا نعترف باستقلال أية دولة تقام في الهند وسنعتبر الاعتراف من أية دولة أجنبية بهذا الاستقلال عملا لا ينطوي على الصداقة)^(١)

وفي بعض ماورد بالجرائد المصرية مقال عنوانه (الباكستان خير أم شر) ويقول كاتبها أن استقلال المسلمين في الهند يتعارض مع العالمية التي هي من مظاهر الكون ونحن لا نعارض هذه العالمية ، ولكننا نفرض استقلال البلاد الإسلامية كشرط أساسي للتعاون الإقليمي ثم التعاون العالمي والا تعرضت الجماعات الإسلامية للزوال وضاعت شخصيتها وانهد كيانها .

وأعود إلى فرنسا وامبراطوريتها وما تنويه من فرض الاتحاد على الشعوب العربية والإسلامية بعد أن رأينا رجال الفسكر يسبقون التاريخ في هذه الناحية ويرسمون خطط السيطرة والغلبة ، فقد ذكرنا فيما تقدم إشارة عن مؤتمر برازافيل الاستعماري الذي عقد بأفريقية عام ١٩٤٤ وجمع أساطين الاستعمار ودهائه ، واستعرض

(١) انتهت أزمة الهند بالاعتراف باستقلال الباكستان ، ولكن الولايات التي نزع منها قد جعلت كيان الباكستان ضعيفا والمستقبل محفوفا بالأخطار .

برامج المستقبل ، وأشار بتأكيد سياسة الاتحاد بين فرنسا ، وما تملكه من الأراضي الواسعة في افريقية وآسيا و صهرها في كتلة واحدة ويهمننا أن نتتبع المسائل العامة التي دارت المناقشات حولها ، فقد برزت هناك فكرتان : فكرة التعاون ، وفكرة الدمج ، ولكل من الفكرتين أنصار وخصوم .

ومعنى التعاون إعطاء الأمم أو الاقاليم شيئاً من الحرية والحكم الذاتي بالتدريج ، ثم دعوتها إلى التعاون مع الدولة صاحبة السيادة في نطاق اقتصادي ، كما هو الحال في بعض المستعمرات البريطانية ، ومعنى الدمج أن تفرض على الشعوب المحكومة أنواع من الارهاب والترغيب ، تنتهي إلى إيجاد شعور يقول : بأن مصلحة المجموع أن يندمج مع الأمة الحاكمة في جنسية واحدة .

ويقول خصوم التعاون : إنه في النهاية يؤدي مع الزمن إلى حياة الدومنيون الاستقلالية ، وهذا لا يتفق مع المنطق الفرنسي الذي يميل إلى المركزية ، ولا يسلم بتوزيع السلطات لأنه في النهاية يعرض الكيان الامبراطوري إلى الانهيار .

ويقول منتقدو الدمج : اذا سرنا خطوات كبيرة في سبيل ذلك وتكلم خمسون مليوناً لغتنا ، واخذوا بثقافتنا ودخلوا مجالسنا النيابية ، وحصلوا على حقوق المواطنين ، وضعنا مستقبلنا بين أيدي ناخبين أجانب من

شعوب ملونة منحطة ، وقد تغمرنا موجات فكرية وثورية لا نقدر على كبحها ، أو قد تتحالف هذه العناصر مع عوامل الهدم الفرنسية وتعمل مع احزاب اليسار ، لتفرض ارادتها : حيثئذ يفات الزمام من الأيدى الفرنسية الرشيدة العاقلة ، وتعرض حياة الأمة إلى اخطار جسيمة .

خرج مؤتمر برازافيل إلى الاخذ بحل وسط ، يجمع بين التعاون والادماج ، فسياسة التعليم بنيت على إدماج الشعوب في الثقافة الفرنسية . إذن يجب أن تشتد هذه السياسة التعليمية ، وان يكون هدفها اضعاف اللغات القومية ، وخصوصا اللغة العربية وفي المستعمرات الافريقية تقرر منع التبشير المسيحي باللغات القومية ، وجعل تدريس قواعد الدين الكاثوليكي باللغة الفرنسية .

ولئن أطيل على القارىء سرد بقية القرارات ، فهي مطبوعة . واذ ماذا يهمننا من أمر البلديات ، وطريقة انتخاب المجالس العامة بالمستعمرات ، وزيادة سلطة الحكام ، والتصديق على الميزانيات والقروض - مادامت السيطرة المركزية لوزير المستعمرات قائمة . اذا كانت سياسة المؤتمر ترمى الى تأكيد السياسة الفرنسية وتثبيت الرأى النهائى للجاناليات الأوربية في مستقبل المستعمرة ، وجعل الكلمة العليا للكلون الفرنسى ، باعتباره ممثلا للأمة الحاكمة صاحبة الأمر والنهى والسيادة .

فالساسة التعليمية اتجهت اتجاها إدماجيا ، مسترشدة بالنظم الروسية ، التي تستعين بالمدرسة على إخراج جيل من الناس ، يؤمن بالثورة وتعاليمها . كذلك المعلم الفرنسي من واجبه أن يفرض لغته ، ليخرج طائفة تفكر تفكيراً فرنسياً ، وتنتطق بإسان فرنسا ، وتؤمن بعظمة وأهمية الحصول على الجنسية الفرنسية والافتخار بأن الفرد الأسود هو فرنسي أسود وأن اللون لا يمنع أنه من سلالة الغالين سكان فرنسا الأصليين وهذا نهاية ما يصل إليه الغرور الاستعماري .

ولكن سياسة الإدماج تواجه الشعوب الإسلامية، والإسلام والعروبة في عالم الاستعمار كما قررنا وباء يصعب مواجهته ، ويستعصى التخلص منه ، فهو راسخ في عقول ملايين من الناس ، وهو كالنار تحت الرماد . وقد أمضى الاستعمار مع الإسلام عشرات السنين . وكلما خيل إلى المستعمرين أنهم قضوا على مشاكه وتغلبوا عليه برزت لهم الأدلة على أنهم مازالوا بعيدين عن زمن القضاء على حيويته . وأنهم مع ماأوتوا من قوة البطش وسعة السلطان أعجز من أن يكسبوا أمامه المعركة النهائية والقول الفصل .

من هنا فسكرت فرنسا في إيجاد مركز دائم للشئون الإسلامية بمدينة الجزائر ، وأطلقت على هذه الإدارة وزارة تنسيق الشئون

الاسلامية، ولنلاحظ أن الاصطلاح الفرنسي يعتبر المسلمين كطائفة
مهما كان عددهم كبيرا . أى أن هؤلاء الناس لا يكونون أمة من
الأمم ، وليس لهم وطن ولا رابطة مع الأرض التي يعيشون عليها ،
فهم « رعايانا المسلمون » ؛ وهم مسلمون وكفى ، وهذا رأيهم وهو
رأى خطير فى نظرى .

وتولى هذا المنصب فى الجزائر صديقنا الجنرال كاترو وهو الذى
عرفناه فى سوريا ولبنان مندوبا ساميا ، ولمسنا فى شخصه اجتماع
القائد والسياسى معا ، وبرهن على أنه صاحب عزيمة ودهاء ، وفكرة
ومقدرة ، وهو يتظاهر بأنه صديق للإسلام والمسلمين ، وإنه يعطف
على أمانيتهم المشروعة ، وأنه يدفع الظلم عنهم ، وهو يمثل فى الوقت الحاضر
فرنسا بموسكو عاصمة السوفييت ، قلت دائما إن رجلا له مزاييا كاترو ،
ولمأمه ، وفهمه لشئون الدنيا ، ودرايته بمشا كل الاستعمار لا يترك
الوقت يمر أمامه من غير أن يشغله يبحث شئون الاسلام فى
روسيا . . نعم قد يكون اختياره كسفير لبلاده من قبيل الابعاد
السياسى فى وقت ترفض العقلية الفرنسية وضع العسكريين فى الصف
الأول ، ولكن كاتروله منزلته ورأيه وشخصيته ، وللاتحاد السوفيتى
سياسة مرسومة تجاه المسلمين . حقيقة أن الناس قلما يتعرضون
لها ولكن أعين الاستعمار لا تغفل عنها لأن روسيا فى توسعها ،

وانتشار نفوذها واجهت المسلمين كما واجهت فرنسا الاسلام من قبل ومن بعد .

ولكن تجارب روسيا مع المسلمين غير تجارب فرنسا . فالأخيرة كانت تحيا تحت سلطان الحروب الصليبية وتقايلدها ولا تزال إلى اليوم ، وهي حروب اشترك فيها غيرها من الشعوب ، وكانت نهايتها محزنة ، لأن السيوف التي انتصرت هي سيوف المسلمين ، ومع هذا تقلب الكتب الفرنسية الحقائق ، وتجعل من الهزائم الفرنسية مفخرة للشعب ودوافع للعمل والجهاد ضد المسلمين .

أما روسيا فقد عاشت قرونا محكومة بالمسلمين ولاقت منهم شدة وعنتا وبين الكنيسة البيزنطية والمسلمين عراك طويل .^(١) ولم تبدأ حملات روسيا بجحد ضد الأراضى التي يسكنها المسلمون إلا فى عهد كاترين الثانية ، إذ دخلت أقاليم إسلامية كبيرة تحت حكمها ، وكانت أساليب الحكم الروسية سهلة واضحة : ذبح المسلمين ، وتشيتهم ، أو تركهم إذا قبلوا الدخول فى المسيحية . ولقد دخل ملايين منهم فى الجنسية والديانة ومن بقى محتفظا بديانته سرا أعلن إسلامه بعد ثورتى ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

(١) كانت الحروب الأولى ضد خانات قازان وتار الفولجا للتخلص من سيطرة المسلمين الذين كانت لهم السيادة على الأقاليم الروسية .

ولما اتسع ملك الروس في آسيا الوسطى وقفقاسيا أخذوا يفكرون في إيجاد سياسة إسلامية ، وأخذوا يقلدون الدول الاستعمارية الغربية ، ولكن ثورة البلاشفة قضت على القيصرية ، وأعلنت حقوق الشعوب وحريتها ، وسمحت للمسلمين باقامة شعائرهم الدينية بعد أن كانوا محرومين منها في بعض المناطق ثم عادت فأعلنت الحرب على الأديان كلها ، وكان من الطبيعي أن يحارب الإسلام كغيره ، وهو قوة عالمية ثورية ، شأنه شأن الحركة الشيوعية إذ يحمل كل منهما لواء العالمية ، وتقنى فيه القوميات والعنصریات والطبقات . فالشيوعية تحاول دائما التغلب على الإسلام في الجهات التي ساد فيها ولها في هذا المضمار أساليبها الخاصة التي جاءت نتيجة للتجارب التي بدأها لينين في سياسة التقارب مع الأمم المغلوبة في ١٩٢٠ و ١٩٢٢ ثم انتهت إلى تحطيم الجمهوريات الوطنية ، وفرض الأنظمة الشيوعية والدخول في سياسة اتحادية ، تخضع أراضي السوفييت كلها لسلطة موسكو المباشرة . أي افناء . حرية الشعوب الإسلامية . سواء في اسيا أوقفقاسيا أو القرم

وكان أن واجه الشيوعيون مشكلة حكم امبراطورية استعمارية تحت نظام جمهوري اشتراكي ، وخطوا في السنوات الماضية خطوات جبارة في طريق الاستغلال واستثمار أراضي البلاد الإسلامية باسم جديد ، وأنظمة جديدة ، وفرنسا من ناحيتها تحكم ملايين من الشعوب

الملونة ، والامم الاسلامية . وتحاول أن تحتفظ بسيادة الجمهورية المركزية على أقاليم شاسعة فهما تتفقان في معالجة مشاكل متشابهة . تلتقي عندهدف واحد، هو المحافظة على وحدة امبراطورية استعمارية . استغلا ليه بأى ثمن .

واذا سرنا فى المقارنة من الناحية الداخلية نجد أن فرنسا تحكم بلادا لها شخصيه أو شبه سيادة : مثل مراکش ، وتونس ، وبعض أقاليم الهند الصينية ، ولديها بقاع يحكمها أمراء وسلاطين بافريقيه . أما الاتحاد السوفيتى فبعد أن حطم ممالك بخارى وخوارزم^(١) ، وحكم الاقطاعيين الذين عاشوا تحت ظلال القيصرية عاد فأنشأ جمهوريات ذات سيادة اسمية فى اذربيجان وتركستان وازبكستان وتاجيكستان والقرغيز ، واعطى لاقاليم أخرى نظام الحكم الذاتى مثل الداغستان وبشكيريا وغيرها .

وهذه الأقاليم التى عددناها إسلامية ، وأهلها مسلمون ومعظم أقاليم الامبراطورية الفرنسية أو أهمها من بلاد الاسلام ويسكنها المسلمون ، ولذلك يحلو لرجال فرنسا أن يقولوا عن بلادهم : إنها دولة اسلامية كبرى ، والسوفيت وان كانوا لا يقرون الأديان فانهم مع ذلك على اتفاق مع الاستعمار الفرنسى ، فى مواجهة المسألة

(١) اماره خيوة فى عصر القياصرة الروس

الإسلامية : باعتبارها معضلة تتطلب الحلول ، ولها مشاكلها ومتاعبها ومضاعفاتها ، ولذلك تحتاج إلى دراسة وبحث ، ولهذه سياسة خاصة بها . أى أن للإسلام سياسة مرسومة في كل من روسيا وفرنسا ترمى كل منهما إلى أهداف مختلفة ، ولكنهما تلتقيان في نهاية واحدة هي أضعاف الإسلام وتقويض أركانه والحيولة دون قيامه بدور تاريخي . وكلاهما يسير على نهج الإدماج ، ونقصد به صهر القوميات في كتلة واحدة ، ولكن الاتحاد يسير على نمط خاص به فهو يفرض اللغة الروسية ، مع الفكرة الاشتراكية ، والفلسفة الماركسية ، ويقدمها في قالب واحد . وسار في هذا اشواطاً حتى في الجمهوريات المسيحية ، لأن حكومة الاتحاد قررت تشتيت مجلس السوفيت المحلي في بلاد الكرج (جورجيا) لأنه عارض سياسة الاتحاد ، وقرر التمسك باللغة القومية ، وجعل لها المقام الأول في التعليم وللروسية المقام الثاني ، ثم يتفق مع السياسة الفرنسية في إحياء اللغات اندثرت ، وثقافات اندرست ، حين يهاجم الوحدة الإسلامية في آسيا الوسطى ، باسم الفن والتاريخ والثقافة ^(١) المحلية . ويشبه هذا النشاط سياسة فرنسا في التفرقة بين العرب والبربر .

(١) من أكبر وسائل بحاربة القومية العربية والإسلام تشجيع استعمال اللغة العامية في الإذاعة والصحف والأغاني

حتى تظهر ثقافات متباينة في كل رقعة ، ويفقد الاسلام تلك الوحدة التي اشتهر بها وعرفت عنه .

فلهذا وغيره يبدو الاتحاد السوفيتي في أنظمته وكيانه كوحدة استعمارية ، تسيطر على أقطار المسلمين ، وتفرض عليهم حكما خاصا كنموذج صالح لفرنسا ، يصح أن يحتذى به في أشياء . والفرنسيون أذكاء وأهل منطق يعرفون تماما أن الأنظمة والدساتير لا تبنى للمالك ، وإنما القوة الدافعة هي التي تحميها . والقوة الدافعة في أراضى السوفيت هي الحزب الشيوعي ، الذي يستند على قوته الثورية ، وأنه حزب عمالي ترتكز عليه الدولة وتخضع لمشيئته ويسيرها كما يشاء .

ولا تملك فرنسا هذه القوة المتصفة بالبطش والفتك ، إذ هي لا تزال تأخذ بأنظمة الدساتير الديمقراطية ، وتعدد الأحزاب في الحكم . وهناك مسائل أخرى تفرق عن السوفيت فيها . أهمها أنها تحترم الملكية الفردية ، وتشجع الشركات والأفراد في تولي الإنتاج الزراعي والصناعي ، بينما الاتحاد السوفيتي لا يعترف بالملكية للفرد ، وإنما يأخذ بالاشتراكية ، ويجعل حق الملكية للدولة ، أو يعترف بالملكية التعاونية . وقد يلتقى النظامان فيما يخص الملكية بأراضى بعض المستعمرات . إذ يحرم التشريع الفرنسي على الأهالي

في بعض المستعمرات ملكية الأرض ويسمح بها لشركات الاستثمار
وللمستعمرين البيض. ولا نعرف مقدار حظ المسلمين في المزارع التعاونية
بالروسيا ، فقد تكون بأكملها في أيدي الروس ، فهي لا تختلف
إذن عن شركات الاستثمار الكبرى في المستعمرات الفرنسية
ولكن الثابت لدينا هو أن الأهالي المسلمين محرومون من حق الملكية في
جمهورياتهم فهم إذن كأهل المستعمرات الفرنسية السود في هذه الناحية
ولم يكن تطبيق النظام الاشتراكي أو التعاوني لصالحهم بل لتقوية
الجالبات الروسية وزيادة افقارهم وضرب الذلة والاملاق عليهم
بعد تحطيم الثورات التي قاموا بها (١) .

هذه نظرات أولية تمسكنا من تلبس بعض ما يقال له فوارق ،
وبعض ما يلتقي النظامان الاستعماريان فيه من نواح . ولا نقدم
جديداً حينما يتعلق الأمر بالأنظمة إذ هي الأسس التي يقوم عليها
الاتحاد . وفرنسا تقدر الفوارق والاتجاهات في الاتحاد السوفيتي ،
ولكنها تعجب من الأنظمة كدعامة للوحدة . فالدستور السوفيتي يقول :
بأن الدولة اتحادية تقوم على أساس الاتحاد الاختياري بين
الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية المتساوية في الحقوق .

وهذا نص مشجع لأن تأخذه فرنسا في نظامها الجديد خصوصاً
وأن معنى الاختيار غير معلوم لدى الروس .

(١) لا يتسع هذا البحث لشرح حال المسلمين في انحاء بلاد السوفيت .

إذ لا يذكر العالم أن إحدى الجمهوريات الإسلامية بآسيا الوسطى جاءت إلى الاتحاد ، وانضمت إليه باختيارها ، وإنما دخلت الاتحاد بعد معارك دموية وقتال استمر طويلا ، ولذلك لن يكون هناك اختيار في الاتحاد الفرنسي كما قلنا .

وينص الدستور السوفيتي على حق تقرير المصير ، ويعترف لكل جمهورية بأنها ذات سيادة . ولكنه يقيد هذا بالمادة ١٤ من الدستور نفسه ، وفيها كل ما يهدم شخصية واستقلال وسيادة الجمهوريات المقول عنها بأنها مستقلة وذات سيادة . وهذا النص يجعل حق تقرير المصير غير موجود ، ولذلك سنراه في دستور الاتحاد الفرنسي وستتمسك به كل دولة اتحادية حينما ترمى إلى السيطرة والتحكم في مصير الأمم الإسلامية .

ومن المفيد أن نعرض هذه المادة مع بعض التفصيل ليستيقظ الغافلون بمصر . فهذه المادة تجمع طائفة من الأمور الهامة الحيوية لكل شعب منها ما هو سياسى وعسكرى واقتصادى ، ومنها ما هو ثقافى وتشريعى . فإذا بحثت عن الباقي من سيادة جمهوريات الاتحاد المستقلة وجدته ضئيلا بحيث لا يضح أن يقارن بالسيادة التى تتمتع بها أية ولاية داخل نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، فإذا سلمنا بأن حكومة الاتحاد ترى أن من حقها عقد المعاهدات ، وحصر

التمثيل السياسى فيها وتسلم قضايا السلم والحرب ، وتنظيم الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، وحماية سلامة الدولة المستقلة . فان هذه المادة تضيف أشياء أخرى تجعل النشاط الاقتصادى بأكمله خارج نطاق عمل الجمهورية المستقلة وبهذا يصبح لاستقلال وهماً ولا فائدة منه إذ تخضع المشاريع الصناعية والزراعية وإدارة المصارف ووسائل النقل والمخبرات ، ونظام النقد والتأمين ، وعقد القروض وكل ما يتعلق باستثمار الأراضى واستثمار الغابات ، ومساقط المياه فى يد حكومة الاتحاد .

وعلاوة على ذلك يسلب من الجمهوريات سلطاتها على كل شئون التعليم والثقافة ، ويسلبها حقها فى التشريع الداخلى الصرف ، إذ تبقى سلطة حكومة الاتحاد هى العليا فى كل ميادين المعارف والصحة ويخضع المحاكم والقوانين من مدنية وغيرها حتى قانون الجنسية وإقامة الأجانب وتنقلاتهم لحكومة الاتحاد هذا مع قرار الاتحاد بأن لكل جمهورية دستورها الخاص بها وهنا تهزأ حكومة السوفييت بالعالم حينما تقول :

أن لكل دولة من الجمهوريات المستقلة مطلق الحرية فى أن تنفصل عن الاتحاد السوفييتى .

ومن قبيل تحصيل الحاصل أن يقرر الدستور السوفييتى أنه فى

حالة التعارض بين القانون الخاص بأية جمهورية مستقلة والقانون الاتحادي وجب على الحكومة المستقلة تنفيذ قانون الاتحاد فلا توجد هيئة عليا كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية للفصل في تنازع الاختصاص أو تفسير الدستور.

من هذا نفهم ولع الفرنسيين بالاتحادية وأنهم بعد أن قلبوا أنظمة الاستعمار وأساليبه من أمريكية وبريطانية وبرتغالية وهولندية وجدوها لا تشفي غليلهم ، ووجدوا مع اختلاف الأهداف في نظام الاتحاد السوفيتي ما يصح الأخذ به ، والسير عليه إذ فيه تأكيد لسيطرتهم وابقاء لحكمهم .

ولذلك لم تخطيء النظر حينما جاهرنا بأن الأنظمة الاتحادية الفرنسية والتي في بلاد السوفييت وما يجول بخاطر بعض الهندوس من إنشاء دولة اتحادية والقضاء على حرية المسلمين بالهند ترمي كلها إلى فرض أنظمة وأسس رجعية تعسفية حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، لأنها تعطى الاستغلال الاقتصادي والسيطرة والتحكم ثوبا جديدا

القسم السادس

فرنسا في مراکش

بدأ الفرنسيون تنفيذ برنامجهم الإصلاحى على مراحل فى
مراكش ، فقد نقلت إلينا الأنباء البرقية طرفا من أخبارهم ؛ وهى
تتلخص فى بعض تغييرات إدارية ادخلوها ذرا للرماد فى العيون
فقالوا إن الوزارة ستألف من عشرة وزراء مراكشيين وعشرة
من الفرنسيين ، واختير مستشار فرنسى يبحث القوانين واللوائح قبل
عرضها على السلطان ، وصرح فرنسى مسئول بأن فرنسا تريد تحويل
مراكش إلى دولة ديمقراطية حديثة ، كما ترغب بإخلاص فى زيادة
مسئولية المراكشيين فى حكم أنفسهم ، وهذه نواح جديدة
بالبحث والتأمل .

ولقد كنا أول من أذاع شيئا عن اجتماع الدار البيضاء الذى
حضره روزفلت وجيرو وديجول الفرنسيان ، وقلنا : إن أراضى
تونس والجزائر ومراكش كانت وديعة بيد الحلفاء ، وقد أعيدت

للسلطات الفرنسية بعد أن تعهد رجالها لرزفيلت أن تسير هذه البقاع في ركب الحضارة نحو الحرية ، وتقرير المصير . وشيء من هذا لم يحدث ولكن تحت ستار الإصلاحات الجديدة ، وتحويل مراكش إلى دولة حديثة ، وزيادة مسئولية المراكشيين في حكم أنفسهم - تقدم فرنسا للعالم المتمددين مشروعاً استعمارياً ؛ له خطورته لأنه ضربة جديدة موجهة إلى استقلال مراكش ، وحريتها ومستقبلها ؛ ولذلك لم نستغرب أن رفض الأحرار المراكشيون هذه السياسة وندّدوا بها ، وقالوا عنها « أنها تريد أن تغتصب البقية الباقية من مظاهر وجودهم ، ونحن الذين تابعوا قضية المغرب من يوم أنزل الحلفاء جنودهم ، وأنصتوا طويلاً إلى أقوال قواد الحلفاء ، وبعض رجال السياسة ، الذين تحدثوا عن مستقبل هاتيك البلاد ، وعرفوا الكثير من تحمس رجال فرنسا ، وتمسكهم بوحدة امبراطوريتهم ، ورفضهم الدخول في أى حديث يتصل بحرية واستقلال شعوب المغرب .

لم تتردد في أن نجهر بالقول لإخواننا أهل المغرب^(١) أن الخطر الذى يبدو لنا هو أن توفق فرنسا لا قناعات العالم أن سياسة الاتحاد الفرنسى مشروع إنسانى ، يدعو إلى رفع مستوى الشعوب ، ويعد

(١) نهاية القسم الثانى .

تنفيذه تحقيقاً لما وعدوا به روزفلت في اجتماع الدار البيضاء ، أو
أنه مرحلة في طريق الرقي الاجتماعي .

ومراکش ليست دولة في مجاهل الدنيا حتى تدرب على حكم
نفسها ، وقد عاصرت القرون ، وكانت امجادها وبطولاتها مضرب
الأمثال ، فهي دولة مستقلة ذات سيادة وصوله وتاريخ وشخصية ،
قبل أن تعرف فرنسا شيئاً من ذلك . وهي أمة موحدة قبل أن تحقق
فرنسا وحدتها الإقليمية في قارة أوربا ، ولاخواننا المراكشيين
جولات في افريقية ، وفي القارة الأوربية . وبين ملوك مراکش
وملوك فرنسا مكاتبات ومعاهدات قديمة ، عامل فيها كل واحد الآخر
معاملة الند للند .

لهذا كله دهشنا من موقف فرنسا ورجالها بعد سنة ١٩١٢ .
وموقفها اليوم في سياسة المقيم العام ، التي يريد أن يفرضها على دولة
قائمة ذات سيادة وشخصية دولية ، وكنا نؤمل أن تغير دروس
الماضي بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد الحرب العالمية الثانية ،
شيئاً من أساليبهم وعقليتهم ، ومراکش بلاد لم تفتح وإنما تعاهد
سلطانها معهم ، وحالفهم على شروط معلومة فاذا هم ينتزعون البلاد
اتزاعاً ويصبح المقيم العام سلطاناً غير متوج له حكومة تجمع السلطات كلها
بين يديه : من تنفيذ وتشريع وقضاء ، ويسيطر رجاله على الشؤون .

المالية والاقتصادية والإنشائية ، ويضع يده على الجبوس والأوقاف .
وينتزع أملاك الدولة ، فيوزعها على المستعمرين من الفرنسيين .

ولم يقف الأمر عندها هذا الحد ، بل ضربت فرنسا بالمواثيق والعهود ،
التي أخذتها الدول عليها عرض الحائط ، فهي لم تحترم ما جاء باتفاق
الجزيرة سنة ١٩٠٧ ولا ما جاء بالاتفاقات التي أعقبت حادث «أغادر»
المشهور ، وكلها تنص على احترام سيادة سلطان «مراكش» ووحدة
بيلاده ، وبقائها بلادا مفتوحة لتجارة الدول ، وميدانا للنشاط العالمي .
وقد رأينا الأسلوب الفرنسي في حكم البلاد التي نكبت به ينتزع
السلطات جميعا من أيدي الحكام الوطنيين ، فتصبح الحكومة
المراكشية التي يطلق عليها اسم (المخزن) صورة لا تملك من الأمر
شيئا ، وإذا بدار المقيم العام يدها السلطات الفعلية وهو يتولاها بواسطة
مستشاريه ، على الطريقة الفرنسية المباشرة ، التي رأيناها في سورية
ولبنان أيام الانتداب .

تصور هذه الدار تتولى الأمن العام ، والجمارك ، والضرائب
وتدير الأوقاف تفتح المدارس ، وتخلق المكتاتيب ، ويدها التشريع
والبرق والبريد وتسيطر على النقد ، ووسائل المواصلات ، وتمنح
الأراضي لمن تشاء ، وتوزع الثروة على شركات الاحتكار والاستثمار

هذه هي مناطق القانون العام ، أى التى يسود فيها الحكم المدنى
أما المناطق العسكرية فهى تخضع لجبروت الجيش ، وضباطه
السياسيين . فهناك يجمع القائد الفرنسى كل السلطات فى يده ، ولا
تمرد لحكمه . إذ تكفى إرادته لنزع الأملاك ، وتنفيذ حكم الإعدام
والسجن ، وإخلاء قرى بأكملها من السكان ، ولا يمكن مراجعة
حكمه ، أو الاعتراض عليه ، أمام سلطة مدنية ، وأهالى البلاد من
المسلمين حيارى بين براثن الاستعمار الفرنسى فى مراکش أذهم فى حالة
حرب منذ عام ١٩١٢ لا يرتفع عن كاهلهم صوت الأحكام العرفية
ولا يشعرون بالراحة يوما ، تؤخذ أولادهم للحروب ، ويرسل
شبابهم الى المعتقلات والسجون

لقد آن للعالم المتمدين أن يفهم حقيقة الحال فى إفريقيا الشمالية
وحسنا فعل المجاهدون المراكشيون فى المبادرة إلى أمريكا، وتعريف
العالم بقضيتهم ، لأنها قضية عادلة ، فهم لن يقبلوا أن يدخلوا اتحادا
فرنسيا يفرض عليهم فرضا ، وقد شرحنا أساليبه ومراميه وأهدافه
ويؤكد سيطرة فرنسا وتدخلها فى شؤون بلادهم أجيالا من الزمن
لاتزال فى عالم الغيب أو المستقبل .

إن كفاح أهل مراکش سيكون طويلا وصعبا لا هوادة فيه ، لأن
بلادهم موطن الثروة المعدنية ، والى هنا تتجه أنظار الاستعمار الفرنسى
للحصول على المواد الخام من البترول والفحم والحديد وهذا الاستعمار

يفرط كما قلنا في ولايات من فرنسا في أوروبا ولا يتنازل عن شمال إفريقيا وهو يعلم تماما أن أي تساهل أو اعتراف من جانبه باستقلال ، أو حكم ذاتي يمنح لأهل البلاد المراكشية معناه : انهيار الإمبراطورية الفرنسية بأكملها في إفريقيا الشمالية .

فعلى الذين يتصدرون الحركة الإستقلالية في مراكش أن يفهموا أن العراق سيكون شديدا وقاسيا ، وعليهم أن يكتسبوا المعركة الخارجية ، وهي معركة الدعاية لقضيتهم في أمريكا ، وفي بقية أنحاء العالم ، عليهم أن يظهروا مساوىء الاستعمار وأضاليه ، وأن يجعلوا الدعاية قائمة في كل مكان ، وأن تمتاز بالثبات والرسوخ والهدوء والمداومة .

ففي مصر لا يكفي شعور الناس بالعطف على قضيتهم ، بل يجب إبرازها كل يوم في ثوب جديد على صفحات الجرائد والمجلات ، بل نريد أن نسمع رأيهم وصوتهم ونرى مناظر بلادهم ومساجدها وأسواقها ، ونقرأ لأدبائهم وزعمائهم كل يوم ونود أن نشاركهم أفراحهم وأيامهم ، ونسمع أغانيهم ونرتل شعرهم ، وتظهر على مطبوعاتهم صور معاهدهم ورجالهم ومظاهر الحياة عندهم .
إننا في حاجة إلى أن نتعرف على أهل المغرب جميعا لأننا في مصر نعد أنفسنا أقرب أهل المشرق إليهم .

لقد تلاقت النفوس قبل اليوم . وارتبطنا بهم يروابط لا تنفصم
عراها . إن في مصر أسراً بأكملها تنحدر من تلك الأصول العربية
التي جاءت من أرض المغرب .
إننا لا تطعن نفوسنا قبل أن ينال المغرب استقلاله ويحصل
على حريته .

القسم السابع

الاعتداء على الجزائر

« ياويلاه إن المصائب والنكبات وامتحان الدهر ليست
وحدها العائق الذي يعترضنا في الحياة بل إن أعمالنا وجهودنا (١)
نفسها كثيراً ما تكون حرباً علينا ،
« فاست »

ليذكر العرب جميعاً والعالم الاسلامي وسائر أمم الأرض أن
فرنسا اعتدت بلا مبرر بل يسبق إصرار وتربص على حرية الأمة
الجزائرية وكان ذلك بغير إعلان حرب ، ولا اخطار للدولة
صاحبة السيادة ، وإنما جمعت وحشدت الجنود وأنزلتها في يوم ١٩
يونيه سنة ١٨٣٠ عند الصباح في مرسى سيدي فريج حيث انسحبت
قوات والي الجزائر من البرج القائم ، حقنا للدماء وإثباتاً للتعدى.
أمام طوفان الفرق ، التي جاءت من فرنسا بمدافعها وعتادها الحربي.
هذا اليوم يجب أن يبقى خالداً في ذكريات كل فرد منا مهما كانت

(١) يرجع ضعف الامم الاسلامية الى فقدان الرجال والساسة ذوي البصيرة
النافذة والاخلاص الدائم .

ثقافته ، ومهما كانت آماله . ولأهل الجزائر أن يرفعوا أيديهم
بالاحتجاج على هذا العدوان ، وإن تنصت السموات العلا إليهم ،
وتستمتع الأرض ومن عليها لشكواهم وآلامهم .

وليتخذ أبناء العروبة هذا يوم حداد . يقفون دقائق معدودة
تحية المجاهدين والمقاتلين ، الذين جادوا بأرواحهم ، دفاعاً عن حريات
الأمة الجزائرية ، في كفاحها الطويل وجهادها ، وليبق هذا اليوم
الأسود قائماً بيننا حتى يصفح الله عن شعبه وأرضه ، ويرد إليهم حقه .
وإلى أن تعود الحياة والنور إلى الشعب الجزائري على الثرى الذى
حمل أنجاده والذى هو له وحده .

كان هذا الاحتلال نكبة كبرى على العروبة والإسلام ، لا
للحوادث التى تمخض عنها من ضياع إستقلال تونس ومراكش ،
ولا لحوادث الكفاح والقتال والتصادم التى دامت سنوات عديدة ،
ولا لما أثاره من المعارك والمقاتل والأيام المشهورة وإنما كان محنة
إزاء ما تبينه العالم من صمت المسلمين وجهودهم وتفرق كلمتهم . لقد
كشفنا هذا العدوان الفرنسى أمام الدنيا وشعوبها ، كنا قوة نخشاهم
أحداث الزمن ، فإذا نحن لا شئ . كان العالم يحسب ألف حساب
للروح التى تفيض حماسة وقوة ورفعة . تلك الروح التى أفرغتها تعاليم
الإسلام على الأفراد والجماعات والشعوب ، فإذا هذه الروح

ولا وجود لها إنها قد ماتت ولم يعد لها بقاء ولم تقم لها قائمة ، ولهذا جعل أهل الجزائر عبء القتال وحدهم وكان عبئاً ثقيلاً عليهم . حقاً إنهم ماوهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا . ولكن للطاقة البشرية حدا ، إنهم دافعوا دفاع المستميت حتى ألقوا في النهاية أسلحتهم .

هذه ناحية جديدة بالبحث والتحقيق . نقول : ماذا دهمى العالم الإسلامى وأهله ؟ ماذا أصاب هذه الشعوب التى عهدناها فى التاريخ زاحفة على الأخطار تتلقاها بصدور مלאها الايمان — لا تلين يوم ترجف الراجفة ولا تخضع ولا تستأمن وإنما تقوم للاحداث وتقعده ؟ أين ذهبت تلك الحيوية التى كابت تتبع الرادفة بالرادقة ، وتهز بعزائم أهلها الدنيا وتواجه بصدور أهلها طوفان الحوادث ، فتعلو عليه ، والنصر من كل جانب يواتيها .

ولقد افتتحت هذا الفصل بجملة من فاوست ، قالها جوته الشاعر الالماني ، وهى تلخص حال المسلمين فى افتتاح القرن الماضى إذ كانت قد خفت منذ سنوات وقرون أصوات المارك الزاحفة . وانهدت صروح الممالك القوية ، وتفككت عرا الدنيا الإسلامية حينما اطلت طلائع القرن التاسع عشر علينا ، فأصبحت المدن التى كانت عامرة أنقاضا ، وهبط عدد المسلمين فى مصر وفارس وسوريا

والمغرب ، وضعف شأن المسلمين في كل جانب ، ومنذ ابتداء القرن الثامن عشر لم يبق لهم إلا دولة آل عثمان ، التي وصلت جحافلها الى فينا مرتين ، ثم إذا هي تواجه الهجمات المتتالية في جبهة البلقان والمجر ، وتدافع ببطولة واستماته فن كان بوسعها أن يخرق حجب الغيب قبل وقوع هذا الحدث الاعظم بثلاثة قرون ، ويجاهر المسلمين بأن مصائب القرن التاسع عشر وارزاءه كانت نتيجة للأخطاء ، التي ارتكبتها أسلافهم بحروبهم وسياستهم وتفرق كلمتهم .

لم يبق من شك أن الحروب التي شنها سليم الأول على مصر وإيران أضعفت الكيان الاسلامي ، كقوة فعالة ، ولا سيما إذا جللنا على ضوء المنطق الاسباب التي دفعته اليها ، فقد كانت مشاكاه مع الدولتين من الأمور التي كان بوسعها حسمها ، دون أن يتورط في معارك مع دول اسلامية هي بطبيعتها حليفة له ، فكان من أثر جروبه ان زالت من الوجود دولة مصر ، التي كسبت الحروب الصليبية في مواجهة أوروبا ، وناهيك بذلك مفخرة لها .

إن الضربة التي وجهت إلى مصر في سنة ٩٢٣ هـ كانت ضربة ضد العروبة والاسلام ، إذ كان من أثرها أن انهار ركن من دعائم دنيا المسلمين ، كان له المقام الأول في الدفاع عن أراضيتهم وصد أعدائهم ، وسرعان ما ظهرت للعيان فداحة هذا الرزء حينما لم يمض (٧) .

نصف قرن حتى أعقب ذلك هبوط سريع في عدد السكان ، ونقص في العمران الذي كان قائما بأراضي مصر والشام . بل إن أثر الفتح العثماني كان شديداً حتى على الحركة العلمية والأدبية التي كانت سائدة بمدارس القاهرة ، ودمشق ، فلم نعد نسمع بمصر عن رجال من أمثال ابن خلدون والسيوطي والمغريزي وغيرهم من أئمة الدين والفقه والشريعة . ثم انظر إلى أثر هذا العدوان ضد بلاد الإسلام في العقلية الأوربية نفسها . فهذه جمهورية البندقية استمرت في علاقات حسنة مع مملكة مصر طول القرون الوسطى ، وإنك إذا ذهبت إلى هذه المدينة وزرت قصر الدرجات تجد في إحدى قاعات العرش رسماً كبيراً يمثل سفراء إيران ، بين يدي عاهل البندقية . إن هذه الصورة توحى بأشياء كثيرة ، فإن هذه الجمهورية بعد زوال مصر أخذت تبحث عن حلفاء لها من بين المسلمين .

والمعروف أن دوق البندقية كان عدواً للأتراك العثمانيين ، فهو يضع في مواجهة العالم اعتزازه بتحالفه مع أعداء الدول العثمانية من المسلمين ، وليس أبلغ للدلالة على تفرق كلمة المسلمين وتشاحنهم بعد حروب سليم الأول من هذه الصورة القائمة حتى اليوم درساً وعبرة لمن يريد أن يعتبر .

وما يقال عن إيران ينصب على سلطنة مراكش ، فهي قد

عاشت أكثر من ثلاثة قرون في شبه عزلة تامة ، نتيجة للسياسة العامة التي وضعها سليم والتي أراد أن يفرض بها سيادة الخاقان الأعظم على بلاد المسلمين وممالكهم ، وهي سياسة لم تكن تسمح بإيجاد علاقات واضحة صريحة مع دولة مرا كش المستقلة ، ولم يكن من نتائجها سوى توالى المحن والنكبات وتحضير الظروف وتوطئة الأحوال الملائمة لذلك الهجوم الفرنسي ، الذي تمثل في الاعتداء على القطر الجزائري الشهيد .

قارن هذه السياسة المبنية على الدعوة إلى السيطرة العامة والخضوع لسلطان الخلافة مع المرونة التي أظهرها ملوك مصر ، ابتداء من من الملك الظاهر بيبرس مع خانات التتار والقبيلة الذهبية وأصحاب عروش القفجاق في روسيا تجد أنهم نقلوا هذه البلاد من الوثنية إلى الإسلام .

أما السياسة العثمانية فلم تنجح ، مع أنها كانت قريبة منهم ، لأنها جاءت لملوك هذه البقاع ، وفضلت فرض نوع من الوحدة والسيادة عليهم ، وكان هؤلاء في عنفوان قوتهم ، فرفضوا الانعان لسلطين آل عثمان ، وكانت دولة الخلافة في إبان مجدها وفتوتها فتمسكت بسياستها . وبعد قرنين ضعف الجانبان ، ودخل خانات القرم طوعا تحت كنف السلطان الأعظم ، فإذا هو عاجز عن

حمايتهم ، وإذا بالقوى تتجمع ضد الدواة العثمانية وكان أول من جاهر بالعصيان جماعات القوازق ، الذين خضعوا لها ، واستأسد حكام موسكو ، فأصبحوا بعد ضعفهم وخضوعهم للملك المسلمين اباطرة وقياصرة . وكانت قلاع العثمانيين على نهر الدنيبر فى شمالى رومانيا وفى وسط بلاد المجر كافية لصد جموع أوروبا بمجتمعة ، ولكن ماذا تفعل الجحافل العثمانية وقد امتدت الجهة شرقا ، وظهر عدو جديد هو روسيا التى أخذت تكتسح الامارات الإسلامية حتى وصلت إلى شواطئ البحر الأسود ، الذى عرفته القرون بحيرة إسلامية .

لقد ظهرت للعيان أخطاء قرنين من الزمن لأن حلفاء الدولة العثمانية الطبيعيين هم سكان الفولجا المسلمين وأمراء القرم ، وهم الذين كان بوسعهم دفع الشر إبان قوتهم ، وكان المنطق والعدل والأخوة تملى بتقوية هذه الامارات وتشجيعها ، بدلا من مناوأتها ، فإذا هى أول ضحايا الزحف المسكوبى وإذا بالجهة العثمانية تنهار بسرعة ، وإذا بمجهود السلطنة والخلافة ينصرف من يوم حصار فينا إلى عهد حملة نابليون ١٨١٢ فى صد الهجمات المضادة التى شنتها أوروبا فإذا وفقت فى صدها عاجلها الدب الروسى الأسىوى ، مستعينا بمن كانوا حلفاءها . لقد كانت محنة كبرى ولكنها من صنع أيدينا قبل أن تكون من عمل أعدائنا ، فالويل لنا إذا تكررت مرة أخرى .

فهل كان من حرج على سلاطين آل عثمان لو اتبعوا أساليب
وسياسة سلاطين القاهرة في علاقتهم مع مسلمى الفولجا والقرم ،
لقد أثبتت الأيام أن ملوك مصر كانوا أبعد نظراً ، وأكثر انتباهاً .
ولذلك لم تكسب الدولة العثمانية كثيراً في سياستها الإسلامية
وجاء اتساع رقعة راضيتها فلم يمكنها من أن تصير دولة متمسكة قوية
ومع خدماتها الجلى للإسلام جاء وقت كانت هى وحدها الدولة
الإسلامية التى تتلقى الصدمات التى يوجهها أعداء الإسلام وخصومه
إلى أممهم . وفى غمرات هذه الحالة جاءت حملة فرنسا على القطر
الجزائرى ، فإذا القوى مبعثرة ، والأيدى مغلوله ، وأراضى المسلمين
الشاسعة خالية من السكان .

نذكر هذا ونكرره إزاء الصيحات التى نسمعها نحو الوحدة ،
وتأليف دولة موحدة إسلامية . ونحن نبادر إلى القول بأن
المتناقضات التى أورتها لنا الأطماع والحزازات ، والعقد النفسية
فلنحذر من الوقوع فى أخطاء السلف لأن هذه الأخطاء قد تكون
أكثر وبالاً علينا من المصائب والتكبات التى يسببها الأعداء لنا .

وكلمة هادئة نسوقها هناهى : أننا من دعاة حرية الشعوب
الإسلامية ، ولكن مع الإسراع فى الأخذ بمدنية القرن العشرين ،
ومع العمل على نقل الشعوب إلى وعى قومى صحيح ، مبنى على العلم

والنور وفهم الحقائق والتثبت منها ، بحيث لا يمكن التأثير عليها
وقيادتها إلى أعمال تحمل من المبدأ جرائم المنشل ، وتنتهي إلى نكبات^(١)
ومحن تضعف من شأن المسلمين ، فعلى ضوء تجارب الماضي ودروسه
القاسية تبنى وتؤسس دعائم المستقبل فنحن طلاب حرية وتقرير
مصير واستقلال ، كل شعب داخل نطاق حدوده القومية والتاريخية
ولسنا من أنصار الفكرة العثمانية التي رأينا أثرها بعد ثلاثة قرون
ممثلة في ضياع شمال أفريقية ، وإنما ندعو إلى تأسيس علاقات جديدة
بين الوحدات العربية والإسلامية تنمو على ضوء التجارب مع الزمن
نحو التحالف والتكاتف والتعاون ، حتى يعاد العمران وتنشأ
المواصلات ، وتختفي الانقراض والخرائب وتحطم أغلال الجهل التي
أورثتها لنا أجيال ، عشنا فيها تحت كنف الاستعمار والاستعباد .
هذه ناحية هامة أعادتها إلينا ذكرى احتلال الجزائر ، وما
لمسناه من خمود أية فكرة عليا للدفاع عن هذا القطر الشهيد ،
فلننظر من ناحية أخرى لهذا الحدث الكبير في تاريخنا ، لنعرف
الدوافع الكامنة وأثرها .
لقد رأينا جيوش المسلمين تسير لتحرير العالم ، حتى إذا انتهت
إلى إسبانيا عبرت جبال البرانس ، ودخلت فرنسا بقيادة عبد الرحمن
ابن عبد الله الغافقي في سنة ٧٣٢ ميلادية .

(١) كتب هذا قبل نكبة فلسطين .

وكانت انتصاراته سهلة على حكام البلاد فوصل زحفه إلى وادي
نهر اللوار ، ولكن في وسط الوديان الشاسعة بين بلدتي تور و بواتيه
حيث المروج الخضراء التقت جموع العرب لأول مرة جموع مع عنصر
أوربي مقاتل هم الجرمان ، وعلى رأسهم شارل مارتل ، ودارت
رحى معركة قال عنها كتاب أوربا : هي المعركة الفاصلة بين الإسلام
وأوروبا المسيحية على زعامة التمدن ؟ .

ولم تكن هذه المعركة بين الإسلام والمسيحية لأن أغلب مقاتلة
الجرمان كانوا وثنيين ، ولكن الدعاية والرغبة في التهويل والتفخيم
أسبغت على هذه المعركة ثوباً فضفاضاً ، لأن نتائجها كانت انسحاب
العرب من وسط فرنسا إلى جبال البرانس ، فقالوا هنا التقت أوربا
وآسيا . وفي هذه المعركة انهزمت قوى الإسلام ، ومن الغريب
أن يذكر بعض المؤرخين أن بين من حارب في صفوف المسلمين ،
أمراء مسيحيين .

لقد شامت الروح الصليبية السائدة في أوربا أن تجعل من معركة
تور و بواتيه ابتداء الهجوم المضاد على المسلمين ، لاقى فرنسا وحدها
بل في إسبانيا ، واستمرت هذه الدعوة قائمة على الكراهية والافناء
سائدة لمدة ثمانية قرون ، وهي تلاحق العرب ، حتى صفت المشكلة
الإسلامية في بحر من الدماء والمذابح في إسبانيا ، وغادر آخر ملوك
غرناطة ساحل الجزيرة الخضراء .

ولقد ظن المسلمون أو خيل إليهم أن نكباتهم قد اقتصت ؛
وأن جحافلهم قد آن لها أن تستريح ، وكانوا في ذلك من الواهمين
لأنه لم تمض ثلاثة قرون حتى لاحقتهم الحروب في عقر ديارهم ،
وقدفت فرنسا — التي حكمها العرب وفتحوا ديارها — بحملة قوامها
أربعة وثلاثون ألفاً من خيرة جنودها وأسطول عدته أربعائة
سفينة ومائة وعشرين مدفعاً تجرها الخيل .

ولم تكن هذه أولى الحملات ، بل تقدمتها محاولات أخرى ،
لقيت فيها مدينة الجزائر الكثير من عيبتهم ، وهدموا أحياء منها ،
ويذكر التاريخ مثل هذه المهجمات على مدن السواحل الأفريقية كلها ،
حتى مدينة الإسكندرية ، وبيروت ، وسواحل الشام أضيت في
عهد الدول العثمانية وقبلها بشئ من هذا العدوان على أيدي
قراصنة الأوربيين .

ومع ضعف المسلمين وتفرق كلمتهم تمكن أهل المدن الساحلية
وهم أهل المشاغرة والرباط من رد هذه الحملات إلى البحر والمحافظة
على السواحل الإسلامية ، واسترجاع المناطق التي سيطر العدو
أحياناً عليها ، ولعل هذه الانتصارات السهلة هي التي جعلت أمراء
المماليك بمصر يستصغرون شأن حملة نابليون ، وجعلت أهل الجزائر
يستصغرون شأن الحملة الفرنسية عليهم ، وكانوا في هذا من المخطئين

فدفعوا الثمن غاليا بهزيمتهم وموتهم ، وأضاعوا البلاد من أيديهم .
وبهذه الحملة انتقلت حلقات الهجوم المضاد لمعارك تور وبواتيه
إلى الشاطئ العربى ، وبدأت حرب الموت والفناء ، تشنها قوة تعتقد
أنها تستعيد مجد روما على الرمال التى حملت أعلام روما القاسية ،
وتستوحى فى قتال المسلمين ذكريات الحروب الصليبية ، ومعارك
لويس التاسع فى أفريقية . وهكذا شامت فرنسا أن نعيش نحن معاشر
العرب بأفريقيه الشمالية فى غمرات الهجوم المضاد ، الذى بدأه
الجرمانى شارل مارتل علينا .

ولم يكن هناك ما يبرر هذا العدوان فقد تقرأ الكثير مما ذكره
المؤرخون عن إهانة الوالى حسين باشا للجنرال دوفال Deval قنصل
فرنسا حينما قدم عليه للتهنئة بعيد الفطر سنة ١٢٢٣ هـ ، وما سبق
هذا من النزاع على الديون التى ماطلت فرنسا فى دفعها لحكومة
الجزائر . والدور الذى لعبه كل من يعقوب كوهين بكري ومينخائيل
أبو زناك اليهوديين فى هذه القضية ، وهل ترفع إلى مجلس الجزائر
أولى محاكم باژيس التجارية للفصل فيها ، ثم احتجاج القنصل
ومغادرته البلاد ومن معه من التجار الفرنسيين ، وما قيل من أن
هذا القنصل تعمد إيجاد هذا الحادث بتوجيه عبارة غير لائقة للوالى
حينما طلب إليه إجابة صريحة من حكومته ، فرد عليه أنه ليس من

عادة ملك فرنسا أن يكتب من هو دونه بغير واسطة ، فأثار بقوله غضب الوالى .

إذا ما الفائدة فى تعرف أسباب العدوان بين القوى والضعيف والنية مبيتة والاستعداد قائم ، ولم يكن إختيار الجنرال ليرأس القنصلية وهو عسكري إلا توطئة وتحضيراً للأعمال الحربية القادمة .

ووقعت الواقعة فى التاسع عشر من يونيه سنة ١٨٣٠ ، إذ أقدمت فرنسا بغير إعلان حرب ، ولا إخطار للدولة صاحبة السيادة^(١) أو إنذار للوالى — وأنزلت عساكرها فى مرسى سيدى فريج ، وهى بقعة خالية من الناس ، لا تحرسها غير قوة صغيرة من الجنود فى برج قائم ، رأت أن تنسحب بغير قتال ، حقناً للدماء أمام طوفان الفرق النازلة من الأسطول بمدافعها وعتادها الحربى .

فلنذكر جيداً هذا اليوم ولا تنسه لأنه يحمل ذكريات العدوان الفرنسى على الأرض الأفريقية على بر الجزائر الشهيد . وبعد مائة عام أى فى ١٩ يونيه سنة ١٩٣٠ احتفلت فرنسا بهذا اليوم ، فأثارت بعملها حمية شرذمة من الجزائريين وإحرارهم ، وخرجوا من ديارهم يجوبون الممالك حتى لا يروا بأعينهم فى ديارهم وأوطانهم ذل يوم يحتفل به الغاصب ، ويرفع أعلامه على أنقاض الوطن الجريح ، والشعب الشهيد . فلقينى جماعة منهم بمدينة استانبول ، وذكروا لى

(١) الدولة العلية العثمانية .

مشاهد مما يلقونه من عنت ، وماصارت إليه أوطانهم ومرابعهم .
وهي البلاد العزيزة التي حملت أعلام المرابطين والموحدين ، وقبائل
المسلمين من العرب والبربر ، وكانت لهم السيادة والقيادة ، والحول
والقوة . أيام كانت ترتج أمام امجادهم وعزائمهم جحافل الفرنجة ،
وتخشاهم الدنيا .

وجاء منهم فريق إلى مصر فأمضى أياماً ، من غير أن يسمع لهم
صوت أو أنين ، ولما جاء الفوج الثاني أرجعهم بوليس مصر وشرطة
الموانئ ، بحجة أن مصر لم تكن مذكورة على جوازات سفرهم^(١) .
وضحكت من الأيام التي جعلت بوليسنا حريصاً على تنفيذ تعليمات
حكومة الاستعمار الفرنسية متيقظاً ألا يدخل مصر العربية من هم
أقرب الشعوب إلينا ، وألصقهم بنا ، ومن يحملون تأشيرة مصرية
قانونية . ولا أدري من الذي لفت الأنظار اليهم ، ومن حال بينهم
وبين مصر ، ومن أعطى التعليمات لاعادتهم ؟

وارتجت مدن الجزائر في يونه سنة ١٨٣٠ ، وقامت القائمة فيها
والوالى يجمع جنده ويحشد هم ، ويرسل إلى البلاد والأقاليم يدعو
للجهاد والدفاع ويطلب النجدة من وهران وقسطنطينية ، وخرجت
الجموع لمهاجمة معسكر الفرنسيين ، فافتحموا المراكز الأمامية أمام
تراجع الجنود الفرنسية ، حتى إذا صاروا تحت مرمى المدفعية

(١) أى ضمن البلاد المرخص لهم بدخولها .

حصدتهم بنيرانها حصدا ، فاخلمت صفوفهم ، واخلو الأماكن التي احتلوها ، وتعقبهم الفرنسيون ، وكانت هذه أول ملحمة على أرض الجزائر في يوم ٢٥ يولية سنة ١٨٣٠ .

وكانت قوات والى الجزائر محتشدة داخل حصون فى ناحية أبى جارية، فخرجت منها للقتال ، والتحمت مرة ثانية مع الفرنسيين فلم تصبر على النيران وارتدت ، وأخلمت هذا المعسكر ، فاحتله العدو ثم تقدموا منه ، واحتلوا بساتين المدينة وأطرافها وبدءوا حصارها وبعد أيام أخذوا فى إطلاق نيران المدفعية ، فأصابت قذائفها برج مولاي الحسن ، وكانت فيه مخازن البارود ، فأصابتها قنبلة ، سببت انفجارا هائلا ، فاندك البرج على من فيه وتطايرت حجارته وتهدمت عدة منازل ، ومات خلق كثير تحت الانقاض .

وبهذه النائية اهتزت اركان المدينة ، وفقدت روح المقاومة ، واستولى الرعب والقلق على السكان ، فقرره والى تسليم المدينة .

وفى صباح يوم ٦ يولية سنة ١٨٣٠ الموافق ١٣ المحرم سنة ١٢٤٦ دخلت جيوش فرنسا من الباب الجديد ، وأنزلت الأعلام العثمانية من القسبة والأبراج ، ورفعت الرايات الفرنسية ، واحتلت الجنود القسبة والقلاع والشواطىء ، وزالت من الوجود حكومة الجزائر الإسلامية .

وتم العدوان على الأرض التي امضت فرنسا السنين تحلم بوضع
اليد عليها، بعد أن فقدت أملا كها في الهند وأمريكا وجزائر المحيطات
ولم يرد في ذكر شروط الهدنة والتسليم نص على الاحتفاظ بحقوق
الآهالي وتقرير مصيرهم سوى النص الاستعماري الذي وضعه
نابليون في مصر وهو : احترام الديانة المحمدية ، وعدم التعرض
لنساء المسلمين .

وهو النص الذي ما انفك دعاة الاستعمار يرددونه في كتبهم
وأبحاثهم وخطبهم دليلا على روح التسامح ، ويقولون ماذا يريد
المسلمون وقد تركنا لهم حرية الدين ، وحفظنا لهم أعراضهم ،
كأن حياتهم وقف على هذا لا تعداه ، أو كأنهم أهل آخرة لا تشغلهم
أمور الدنيا ، فلا تهمهم العاجلة ، ماداموا قد ضمنوا الآجلة ،
وأخذوا بأيديهم مفاتيح الجنان .

ويقول مؤرخو المسلمين : اهتزت لهذه النائية المشارق والمغارب
، وكانت من أعظم النوائب ، والحقيقة أن العالم الإسلامي الذي
عهدناه يهتز لما يحدث في ركن منه لم يتحرك لهذه الكارثة ولا مآتلاها
من نكبات ، وإنما تحرك القطر الجزائري وحده ، أمام العدوان ،
وقامت قبائله ورجاله يذودون عن حياضهم ، وانضموا تحت لواء
الأمير عبد القادر ، يكتبون بدمائهم ملحمة من ملاحم الحروب

القاسية في تاريخ الإسلام الذي واجه الحقائق ، وقال : لقد تبينت ما قدر على وهأنذا مستعد للاقدام .

ولكن بعد مضي قرن من الزمن يقف أهل الجزائر مرة أخرى للامتحان أمام فرنسا ، ويرددون هذا القول ، لقد عرفوا وتبينوا ما كتبه لهم الأقدار ، فهل هم على عهد الأقدام قائمون ؟ هذا ما ستفسره الأيام .

وسنرى في القسم التالي ما كان من هذه الواقعة الخالدة .

القسم الثامن

الأمير عبد القادر الجزائري

زعيم وأمير وجندى وقائد ثورة

« إذا صقلت بارق سيفي »
« وأخذت بالقضاء يدي »
« رددت الانتقام على أعدائي »
« وفرضت القصاص عليهم »
نشيد موسى النبي في
سفر التثنية

رأيت كيف تلقى العالم الإسلامي بوجوم انباء الاعتداء الفرنسي.
على الجزائر، وكيف احتلت فرنسا السواحل والناس في شغل عن
هذا كائن الأمر لا يعنيه، فألقى عبء الجهاد على أهل الجزائر،
يقاتلون ويقتلون ويشردون . والقطر الجزائري ساحل ممتد.

الأطراف على مسافات شاسعة ، فأصبح لكل مدينة على البحر
جبهة قتال ، قائمة بذاتها .

ففي جبهة مدينة الجزائر زحف القائد الفرنسي إلى الداخل ،
واحتل مدينة البليدة وقدم أهلها الطاعة بين يديه ، ولكن دعوة
الجهاد والدفاع عن الوطن انتشرت بين القبائل في الجبال
المحيطة ، فتجمعت الجموع ، وزحفت إلى القتال ، وفي اليوم الثالث
من احتلال المدينة اقتحمت قوات المجاهدين أسوار البليدة ،
وهزمت جنود فرنسا ، فاضطر القائد العام أن ينسحب مع من بقي
من جنده عائدا إلى الجزائر ، حيث دعى إلى بلاده ، فأثر أن يعيش
بأسبانيا وجاء قائد آخر أخذ يدبر الأمور ، لإتمام الاحتلال ، تارة
بالسيف وأخرى بالخدعة ، وبذل الوعود .

في هذه الأثناء اتجهت الأنظار إلى سلطان مراکش ، واجتمع
أهل العقد والحل من سكان الجزء الغربي ، وأرسلوا وفداً إليه ،
يطلبون معونته ، فأجابهم إلى مطلبهم ، وبعث بأمير من أولاد عمه ،
فلقية الناس بالطاعة ، ووصلت طلائعه إلى ناحية مليانة شرقا ،
ولكن فرنسا أسرعت وكلفت ممثلاً لدى البلاط الشريف أن يحتج
على هذا التدخل ، فاضطر سلطان مراکش أن ينسحب بجنوده ،
وأن يستدعى ابن عمه إليه ويترك أمر الجهاد لأهل البلاد .

كانت الدعوة إلى الجهاد عامة يشعر بها الناس كافة : من عرب و بربر ، ومن أهل الحضر ، وأهل الجبال والبادية ، وكانت الحرب في كل ناحية قائمة ولكن كانت تنقص الدعوة القيادة المنظمة التي تجمع الشمل ، وتنظم الجهود ، وتحرك المشاعر ، وتدفع هذه القوى الروحية نحو الغاية الكبرى .

ولقد شئت العناية الإلهية أن تختار هذا القائد من جهة وهران على الحدود المراكشية ، ففي سنة ١٨٣٢ قامت سرية من المجاهدين عقد لواؤها للسيد عبد القادر بن زيان بحركة كشفية ، حول أرباض المدينة وفي موضع يقال له خنق النطاح التقت السرية بفصائل العدو واشتبكت معها في معركة تعرضية ، وفي اليوم التالي أدركتها حشود المجاهدين فدخلت القتال متراصة زاحفة ، فانتصرت انتصاراً باهراً وقرر العدو منهزماً ، متراجعا إلى مدينة وهران .

وفي وسط المعركة ظهرت مخايل النجابة والبطولة ، والقوة والفتوة على الشاب عبد القادر بن السيد محي الدين الذي ما انفك مع والده يحرض المسلمين على الجهاد ، ويورى المقاتلين دقاعد للقتال كان في الخامسة والعشرين من عمره ، وقد عرف الناس فيه الحزم والعزم والعقل السليم والصبر في القتال ، فخامت المعركة فإذا بالشجاعة

وقوة البأس تظهران عليه ، وهو يخترق الصفوف ويباشر القتال بيده ، لنصرة دين الله . وبينما هو يخوض وسط المعركة تحامل عليه فارس من فرسان فرنسا برمح ، فإذا بالطعنة تمر تحت إبطه الأيسر فشد عليه عبد القادر بعزمه وقوته ، وهوى بسيفه على الفارس ، فإذا بالسيف يقطع كتف الفارس نصفين ، فكانت آية من آيات الله . تناقلها الناس ، وسرى ذكرها بينهم . وتلقى جواده ثمانى طعنات ، ثم أصيب بالرصاص تحته ، فنزل وترجل واستمر يقاتل في مواجهة العدو ، وهو على قدمه ثابتاً في مواقعه ، حتى جاء النصر من عند الله ، وتقهقر العدو منهزماً ، لا يلوى على شيء ، وبات المسلمون ليالتهم في التهليل والتكبير .

هذه بداية القائد الشاب بطل الاستقلال الجزائري ، وصاحب المواقف الخالدة ، بين سنتي ١٨٣٢ و ١٨٤٧ ، الذي تمثل في عبقريته عراك أمة وكفاح شعب يقاتل في سبيل مثله العليا والذي أمضى ستة عشر عاماً في الحروب لم يدع فيها القتال والتصادم والكر والفرد فاعاً عن حومة الدين ، وعن حرية الوطن الشهيد وظهرت فيها صفاته وميزاته للقيادة والزعامة ، وضرب للناس مثلاً بتمسكه بالمبادئ والأهداف التي قام من أجلها ، فأسبغ عليها عملاً متواصلاً لا ينفك عنه ولا يرجع

وبرزت نفسه القوية التي لا ترهبها الأهوال والنكبات ، ولا تخيّرهما الانتصارات المتتالية ، ولا تنقص من حماسها النكبات والهزائم .

سنة عشر عاماً من المعارك المتواصلة ، لا تتخللها غير فترات قصيرة من السلم والراحة ، أفردتها للتنظيم والإنشاء ، والدعوة إلى الله ، والعمل لبناء دولة ناشئة ، القيت أعباؤها عليه بأكملها ، إذ واجه مشاكل السياسة مع مصاعب الحروب ، وعالج الهزائم والدسائس بنفس عالية ، فيها قبس من أخلاق السلف الصالح ، وفيها تلك النواحي القوية التي أفرغها الإسلام على قواده وزعمائه من قوة أمام الأخطار ، وصلابة في الحق ، وتمسك بالعروة الوثقى مع تواضع ، وصبر على المكاره ، وحوادث الزمن .

كان هذا في وقت عصيب واجهت فيه الجزائر أكبر محنة في تاريخها ، يوم دعيت وحدها للدفاع عن أراضيها ، ويوم ضعفت النفوس ، وتفرقت القوى بين عناصر متشاحنة ، وقبائل متنافرة . هنا ظهرت شخصية عبد القادر كمنشئ دولة ، وقائد جيش ، وزعيم أمة .

إن عظمة عبد القادر لا تظهر في انتصاراته وحدها ، وإنما في تغلبه على متاعبه ، وفي شجاعته وسط الهزائم ، والدعوة إلى الانشقاق والخيانة وفي مواجهة دعاة الويل والهزيمة . وزمرة

المنافقين ومن لازمهم) هنا تعلو حيوية عبد القادر على الحوادث حينما تراه مجاهداً ، لاتهمد عزيمته وسط الأخطار ، ومكائد العدو والبحر مغلق أمامه ، والعالم الإسلامي يغط في نومه ، فلا يخفف عنه إلا ذكر الله ، والدعوة إليه وإيمانه بأن إرادة الشعب الجزائرى قد تمثلت في إرادته ، وإن الله قد اختاره لعمل كبير ، هو انقاذ هذه الأمة وقيادتها إلى الجهاد فى سبيل الله.

تقلب صفحات تاريخه ، وتسمع أقوال الخصم عنه ، وتنصت لتنظيمه وشعره ، وتقرأ رسائله ، فتلس رجلاً قد أوتى حظاً من الإيمان ، والثقة بالله ، بما جعله فوق المستوى العادى للرجال كان من إختيارهم المولى جل وعلا لعمل خالد ، فقد كان يعلم بأن أمامه دولة قوية ، قد أفرغت فى القتال كل قوتها ، وصمدت على فتح بلاده ، واستعانت بما أخرجته الفن والعلم فى الحروب ، وقد خرجت من تجارب حروب ومعارك ، ومع ذلك وقف وقفته ، وكان يشعر بأن أعداءه فى الداخل لا يقلون خطراً عن أعداء الوطن ، فتقبل بالرضا حكم الأقدار ، وقاد بلاده هذه السنين ، وهو واثق من نفسه لا معين ولا حليف له ولا أمل لديه إلا همة السيوف التى خرجت من أغمارها ، ووقفت معه .

نعم في وسط المكائد والهزائم والدعوة إلى الهزيمة تعلو قوة عبد القادر ، فتخلق من الهزيمة قوة ، وتدعو إلى الله ، وتعمل على جمع الشمل فيقود الأمة الجزائرية إلى كفاح طويل إلى المجد .

ذلكم هو بطل الاستقلال الجزائري وأول مسلم تلقى بصدوره حلقات الهجوم المضاد ، الذي شنه الغرب علينا لانتزاع أراضينا . حينما أكتب عنه أستعيد ذكرى حادثين أثرا في حياتي : أما الأول فصورة زيتية للأمير عبد القادر رأيتها في السوق الخيرية التي أقيمت بحديقة الأزبكية ، انصرة المجاهدين من أهل طرابلس ، لما اعتدت إيطاليا على أراضهم . رأيت على جواده ، وقذائف المدافع تنفجر من حوله ، فوقفت مأخوذاً ، وكنت في العاشرة ، فإذا بصاحب المؤيد الشيخ علي يوسف يحدثنا عن بطل الجزائر ، ومن ذلك اليوم انطبعت في نفسي صورة القائد الزعيم وحرصت أن أقرأ عنه ، وأتعرف إلى معاركه وأيامه .

أما الحادث الثاني : فيوم وقفت على قبره تحت قبة سيدي محي الدين ابن عربي بمدينة دمشق . لقد كان الشوق إلى زيارة الضريحين شديداً طوال سفرى من أنقرة ، ولما تم اللقاء ، وقفت أمام هذا القبر أستمطر الرحمة على بطل الاستقلال ، ومرت أمامي صفحات الجهاد وأسماء البلاد في الجزائر :

وهران . قسنطينة . تلمسان . المعسكر . مستغانم . البليدة .
مليانة ، وذكريات المعارك الخالدة في رأس العين ، وخنق النطاح
ووادى الزيتون ، وغيرها من مواقفه .

وفي باريس صورتان كبيرتان ، تمثلان عراك الأمير وجنود
فرنسا ، وتقتحم الصفوف أعرفهما . قيل أن الأمير وقف أمامهما
عند زيارته للعاصمة الفرنسية وقال : أراكم تمثلون جنودنا منهزمة ،
فهلا نظرتهم ورسمتم المعارك الكبيرة ، التي ولى فيها جنودكم الأدبار .
وفي قصر العجزة حيث متحف الجيش الفرنسى نجد الآثار
والأعلام والأسلحة من بقايا حروب عبدالقادر ، لقد كنت ألمسها
ثم أقبل يدي التي لمستها وانحنى أمامها ، وأقول هل أعيش لأرى
الجزائر حرة ، وقد خلعت استعبادها ، وأسمع أناشيد الأمير من
مقصورته التائية ترتل في مدارس القطر الشهيد .

ونحن لنا دين ودنيا تجمعنا
ولا نفخر إلا مالنا يرفع اللوا
وانا سقينا البيض في كل معرك
دماء العدى والسمر أسعرت الجوى

أريد أن أشرح معاركه ، وأكثبها ليقرأها أبناء مصر العربية ،

وإيروا آيات المجد والبطولة، ولكن الزمن يسير بخطوات سريعة ،
وأريد أن أحدثهم عن يوم تجمعت فيه أحكام القدر ، فألقى البطل
سلاحه ، واستأمن للخصم ، على أن يذهب للاسكندرية ، فحنثت
فرنسا بإيمانها ومواثيقها وعهودها ، وقادته أسيراً إلى فرنسا حيث
أمضى مع والدته العجوز وأهله خمس سنوات في الأسر ، يحن فيها
إلى البلاد التي أراد دفع الشر عنها ، ثم أطلق سراحه ، فإذا طريقه
إلى دار الخلافة حيث يلقي السلطان عبد المجيد العثماني . وبعد إقامة
يسيرة في بروسة يذهب إلى دمشق ، وهناك يعيش حتى يرقد رقدته
ليترحم عليه محبوه . أما أنا فقد قرأت حين وقفت على ضريحه قوله
تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم
في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)
(آل عمران)

ذلك لإيماني أن أمة تنجب عبد القادر لن تموت ، بل ستبعث
بعثاً يهز الأرجاء ، لأن الدرس الذي ألقاه علينا كان درساً يحرك
النفوس ، ويدفع للعمل لقرون قادمة . إنه قوة من قوى الذات
الإلهية التي بعثها لخير الناس ولما خطه الله في سجل القدر ، من أن
تحيا الأمة الجزائرية ، لتعود إلى أيامها الأولى ، أيام
المرابطين والموحدين .

القسم التاسع

كفاح الجزائر أمام جحافل فرنسا

قال ضابط البحرية الياباني :

إنك لم تفهم بعد الدرس الذي تلقيناه من أجدادنا بهزيمتهم وموتهم . أنه درس صبر وعناد ، ويقظة واحتراس ؛ ومكر وخديعة لكي نتصر على أعدائنا ذهبنا لمدارسهم ، وكانت عقولنا لا تهضم تعاليم الغرب وأساليبه . ف شعرنا بحاجتنا إلى عقلية أوربية ، فأقدمنا بكل صعوبة وألم وحسرة على التحرر من أشياء عزيزة علينا للحصول عليها ، ولكن هذا التغيير كان لازماً لأجل الخلاص ؛ لأجل إنقاذ الوطن ؛ لكي نتصر على الأعداء في الميدان .

(من كتاب المعركة)

إننا لا نحاول سرد حوادث هذا الكفاح لأن من السهل تتبع معاركه وأدواره وحلقاته من كتب التاريخ في مختلف اللغات ؛ ولذلك سنكتفي بإعطاء فكرة إجمالية ، أو رسم صورة عامة من التي يراها

واقف على مرقب أو مركز للرصد على رابية عالية تشرف على
الحوادث والتطورات وعلى مواقع القتال ، ونرجو أن نوفق في
إخراج التاريخ صورة حية ، وذكرى لمن شاء أن يتذكر ، من دروسه
وتجاربه وعبره ، حتى لا تتكرر الأخطاء مرة أخرى في تاريخنا
وكفاحنا^(١) .

كانت حكومة الجزائر الإسلامية من الحكومات التي ليس لها
شبيه أو مماثل في التاريخ ، إذ كانت تابعة للدولة العثمانية ، ولكنها
تتمتع بسيادة وحرية ، وكانت خارجة على القانون الدولي ، والعرف .
السائد بين الأمم الأوروبية ، ومع ذلك فهي تفرض الاتاوات على
على دول الغرب ، وتتقاضى رسوم المرور في عرض البحر ، وإلا
هاجمت أساطيلها المراكب التجارية ، وأحيانا تغور هذه الدول
ومرافقها ، ولهذا سالتها الحكومات المختلفة ، وأذعنت لقبول
ما تفرضه هذه الحكومة عليها ، فكانت فرنسا ترسل إليها هدايا معلومة
مالية أحيانا ، وأخرى معدات وآلات حربية ، وكان هذا شأن
بريطانيا معها والدانمارك وملكة صقلية والبرتغال والسويد
والنرويج ، حتى ولايات المانيا والولايات المتحدة خضعت لهذا
النظام العجيب الذي فرضته حكومة قليلة العدد ، ولكنها
كثيرة البطش .

(١) كتب قبل نكبة فلسطين .

وكانت قواتها المسلحة تتراوح بين ١٥ و ٢٠ ألف مقاتل ، من الجنود الأتراك^(١) ، أو أبناء هؤلاء من أمهات وطنيات ، وكان ينضم إليها رجال من قبيلة زواوه ، وهي التي حرفها الفرنسيون ، فأصبحت فرق الزواف المشهورة التي قامت على متطوعي هذه القبيلة ، وبقايا جند حكومة الجزائر النظامية .

وعلى هؤلاء الجنود اعتمد الدفاع عن المدن الساحلية عندما هاجم الفرنسيين ، ولما ثبتت قواعد حكمهم جندوا من الأسرى أول فرقة وطنية للاستعانة بها .

أما في الداخل فقد قامت قوة الدفاع من جماعات المقاتلة من رجال القبائل ، وهم مشاة وفرسان على طريقة حروب البادية ، ولما اشتدت المعارك فكر الأمير عبد القادر في إدخال النظام العسكري الحديث ، مقلدا المحاولات التي حاولها كل من محمد علي ، والسلطان محمود العثماني ، ولا شك في أن هذه المحاولات قد بهرت أنظاره ، وتطلع إليها ، وحاول تقليدها .

وفي سيرة الأمير ذكر ابتداء هذه الحركة وانتشار الدعوة إلى تجنيد الأجناد وتنظيم العساكر تحت اللواء المحمدي ، وإيجاد دفاتر لتقيد الجنود ، الذين بدءوا تدريبهم ، وأتموا تعليمهم ، ورسم الذين حملوا السلاح منهم كما فيها وصف كامل لأصناف الفرق ، من مشاة

(١) دخل الأتراك المغرب في عهد ابن طولون ، وهاجروا إليه في عهد

الابويين جماعات .

وفرسان، ومدفعية، وطريقة التعبئة، والسير والنزول في المعسكرات ويظهر أن هذه القوة مع اهتمام الأمير عبد القادر بها لم تكن هي التي يقع عليها عبء القتال وحدها وإنما كان الكفاح موكولا إلى رجال القبائل، وكانت هي بمثابة قوات ثانوية مساعدة ومكملة.

أما الفرنسيون فكانوا على علم تام بطبيعة الأرض الجزائرية من ناحيتها الجغرافية والطبوغرافية ولديهم الخرائط المفصلة عنها فقد أثبتت المراجع الرسمية أن نابليون الأول أرسل ضابطا فرنسيا إلى الجزائر عام ١٨٠٨، وكلفه أن يدرس بالتفصيل مشروع الحملة الفرنسية، ووضع الخطط العسكرية الشاملة، وقد قام هذا الضابط بمهمته، وصحح المواقع على الخرائط، ورفع تقريراً وافياً عن الشاطئ الأفريقي والأماكن التي تصلح لإنزال الجنود وأشار إلى الطرق والآبار والوسائل التي تؤدي إلى حشد القوات وربطها، والسير في حلقات الحملة، ولم يكن لدى الفرنسيين عند عدوانهم سوى إخراج هذا التقرير من ملفات وزارة الحربية وتقييد مافيه. وهذا ما حدث في عدوان سنة ١٨٣٠ إذ انزلت الفرق في الأماكن المختارة في هذا التقرير وتحت تجارب حملة مصر عند احتلالها مدينة الإسكندرية واختيارها منطقة العجمي التي تشبه سيد فريج ولم يكن الفرنسيون على جهل بأساليب القتال لدى المسلمين، فهم قد حاربوا المماليك في معركة

انبابه^(١)، ورأوا ما يمكن أن تقوم به أساليب القرون الوسطى أمام جنود معبأة على الطرق الحديثة . ثم هم لم يهتموا بتتبع التطور الذى أدخل على أنظمة جيوش المسلمين ، فقد كان من ضباطهم وتوابعهم من رافق حملات مصر ضد الوهابيين ، وكانوا فى الصفوف الأولى . يقيدون حركات المصريين ودفاع الوهابيين ، ويكشفون عورات الجانبين ، ثم يستفيدون من كل ذلك فى حروبهم بالجزائر .

واختير للقيادة البرية المارشال بورمون وهو من رجال سنة ١٨١٥ أى من الضباط الذين قاتلوا فى معركة واترلو ، وحضروا معارك نابليون ، فأسندت إليه أمرية حملة بنيت على تقرير ضابط من ضباط نابليون ، وكان على الأسطول الأميرال دوبريه ، ولكل منهما طابعه الخاص ، ورغبته فى الإنفراد والتسلط فما لبث أن دب الخلاف بينهما ، ولولا تعليمات الحكومة الصريحة أنه إذا اختلفا الرأىان فضل رأى المارشال ، وأسندت إليه القيادتان البرية والبحرية لاستفحل بينهما النزاع ولفشلت الحملة .

ولعل أعظم ما ساعد الفرنسيين على التغلب هو أعمال المدفعية التى تجرها الخيول ، فقد امتازت منذ الساعة الأولى كما ذكرنا بقوة بيراتها ، وتوفيقها فى إصابة الأهداف وسرعة حركتها ، فكانت أول عامل من عوامل النصر لديهم . كانت كمدركات هتلر ، وفرقة

(١) كانت معركة الاهرام قاضية على فكرة ان جيوش للمالك لا تنهر .

البانزر الألمانية في الحرب الأخيرة وهي الميزة التي كانت لدى الفرنسيين على جند حكومة الجزائر وعلى العرب المجاهدين . ولولا هذه القطع من المدفعية لكانت الحرب بين الفريقين على مستوى واحد ، من تكافؤ معدات القتال .

فلتنظر إلى ساحل ممتد الأميال ، عليه مدن ومرافق متعددة ، ويتكون الداخل من سلاسل جبال ووديان ورمال ، تصلح للحروب وتسمح للقبائل والعشائر التي تسكنها أن تتولى عملياتها بكل سهولة ضد الجيش المهاجم سيما وهي من جماعات ألقت الحرب .

على هذا الميدان نزلت قوات فرنسا بمعداتنا الثقيلة ومهماتنا الأوروبية لتواجه أهل البلاد ولديهم ثلاثة أصناف من المقاتلة : جند حكومة الجزائر وحكام المقاطعات ، الجند النظامي الذي أنشأه الأمير عبد القادر ثم العمود الفقري للقتال وهم رجال القبائل الذين نلبوا دعوة الجهاد .

هذه هي حرب الجزائر التي اشتدت وطأتها على أربعين ألفاً من الجنود الأوروبيين ، اصطلوا بمعاركها ، ومشوا إليها تحت وهج الشمس ، فتغيرت سحتهم ، وتبدلت لديهم ملابس الميدان ، وأصبحوا مع الزمن كقطيع منفصل عن العالم ، لا يعرف سوى الحرب والدمار وإسالة الدماء على الأرض الأفريقية . هذا جيش أفريقيا ،

الفرنسي ، الذي ، لدونشأ وترعرع في معارك الجزائر ، وحروبها القاسية ودارت رحى الحرب سنوات والهزائم تتولى والمصاعب تتضاعف وايس لدى الفرنسيين الخبرة الواسعة بالإدارة والحكم ، فهم تارة يجتحنون إلى الشدة ، ويقنعون أنفسهم إنها هي الحزم ، وأخرى يتقربون زلفى إلى الأهالى ، وفي أوقات يقدم قوادهم على عمليات حربية ، فيها المجازفة والتسرع ، فترتد عواقبها وخيمة عليهم .

من وسط هذه النكبات ظهرت فكرتان : الأولى إنشاء المكاتب العربية التى أطلق عليها فى النهاية إسم المكاتب الوطنية . والثانية تجنيد أهل البلاد وقد ظهرت بوادر النجاح فى الناحيتين ، إذ بالاعتماد على الفرق الوطنية المقاتلة وبعد احتلال مدينتى بون وهران ، واتباع خطة الدفاع أمكن انقاص القوات الفرنسية من ٣٧ إلى ١١ ألفاً فعد هذا نجاحاً للقيادة .

أما المكاتب العربية فهى التى وضعت سياسة التخريب والتشريد^(١) وهى إحراق المناطق المزروعة ، ومصادرة قطعان الماشية ، التى تملكها القبائل العاصية ، والاستحواذ على الأطفال والنساء كرهائن ، والفتك بهم إذا استمرت الحرب ، وأخيراً تطور هذا النشاط إلى القمة ، واتجه إلى بذر الشقاق بين عناصر وطوائف الأمة الجزائرية ، وخلق قضية العرب والبربر ، فأكسبت هذه المكاتب فى هذا النشاط من المعارك أضعاف ما كسبته فرنسا بقوة السلاح .

(١) لو قرأ المستولون اساليب فرنسا فى الجزائر لما وقعت نكبة فلسطين .

وكان الأمير عبد القادر أول ضحايا عمل هذه المكاتب فإن قواد فرنسا حاولوا كثيرا أن يعقدوا اتفاقا معه ، ولما توصلوا لذلك ، واعترفوا باستقلاله وأمارته سلطوا مكاتبهم عليه ، ووجهوا المطاعن بواسطة وكلائهم وخدامهم ، فقالوا أنه حالف الكفار ، واعداء الدين ، فأصبحت بيعته باطلة ، ووكالته على الناس غير قائمة ، وعرفت هذه المكاتب السياسية أن تجعل بين أبطالها من هم من رجال الدين والطرق والزعامة ، وجندت من يتظاهر بالجهاد الوطنية ، وأصبحت مع الزمن من أخطر المنظمات الاستعمارية وأشدّها وطأة بما تملك من الوسائل والقوى الخفية ، مما يعجز الناس عن تصديقه ، ولقد عشنا في كثير من بلدان الشرق ، ورأينا أمثال هذه المنظمات تعمل في هدم الكيان الإسلامي والاستقلالي ، ورأينا أناسا يقودون المظاهرات الوطنية ، ويخطبون في الجماعات ، ويجهرون بمبادئ متطرفة ، ويكتبون عن أنظمة للحكم ، يسارية أو نازية ، ثم يكتشف بعد زمن طويل ، وبعد فوات الفرص أنهم مقيدون كخدم لهذه المنظمات الخطرة ، يتلقون وحيا ، ويعملون بأوامرها ، وقد وصل بعضهم إلى المال والمركز والجاه ، تحت ستار التضحية والعمل والإخلاص فطوبى لهم .

ولهذا يجدر بالأحزاب والمتصدرين للجهاد في سبيل المثل العليا

أن يرقبوا الأنصار والأتباع ، قبل الخصوم والأعداء ، وأن يقوموا
من بين وقت لآخر بغريلة صفوفهم ، وأجراء حركة تطهير ، لأن
الدول الاستعمارية وطدت سلطانها بهذه المنظمات ، وبمن يتبعها من
الرجال المنبئين في كل جهة والذين يشايعون الاستعمار وتلعنه ألسنتهم
ويتظاهرون بالتطرف لاخفاء حقيقة الأمر .

ولقد تمكن الأمير عبد القادر من إيجاد دولة عربية مستقلة ،
عاهدت الفرنسيين على السلام ، واحتفظت بقواها كاملة ، بعد أن
حققت ما ترمى إليه بانتصارها في ميدان القتال ، ولكن الدولة
التي عاهدها كانت تفكر قبل أن توقع على المعاهدة في نقضها فما ان
وقعت عليها حتى بدأت ترسل النجدات تترى ، وأخذت تثير
القبائل عليه .

ويقول الفرنسيون في ذلك « إننا لم نعقد مع أمراء المسلمين
معاهدة وإنما عقدنا هدنة لكسب الوقت ، حتى يتم تحطيم الجبهة الشرقية
ثم نعود إليهم في وهران . »

هذا ما حدث فإن ضغطهم تحول فجأة من جهة الأمير عبد القادر
إلى جهة قسنطينة على حدود تونس ، حين عبأت فرنسا قواتها
بكاملها ، وزحفت على المدينة في هجمتين : فشلت في الأولى في فبراير
سنة ١٨٤٧ وكان ذلك قبل التوقيع على معاهدة تفنا مع الأمير ، ونجحت

في الثانية بعد نقل حاميات الغرب فافتحمت المدينة المحصنة في أكتوبر سنة ١٨٣٧ .

ومن ذلك يتضح أن قواد فرنسا بعد أن أدركوا فداحة حرب الجزائر أخذوا ينسقون خططهم الحربية، فوضعوها على أن تنفذ على مراحل، إذا أتموا مرحلة، انتقلوا لغيرها، ووضعوا المبدأ الثابت وهو شراء النصر والغلبة بأي ثمن، حتى لا تفقد فرنسا هيبتها العسكرية .
ولذلك وصلت قوة جيوشهم إلى ٥٦ ألف مقاتل في سنة ١٨٤٠ ، واستدعت فرنسا بعض الكتابب الممتازة من أصناف القناصة التي كانت تعد من قبيل فرق الكوماندو في العصر الحاضر، لتفوقها في التدريب أي زهرة الجيوش الفرنسية .

أما الأمير فقد آمن بعد مفاجأة الفرنسيين لعاصمته بالفرق الكبير (بين الجنود المنتظمة والجنود المتطوعة) ولذلك انتهز فرصة عقد المعاهدة وعزم على إنشاء جيش نظامي حديث . فعقد مجلسا عاما من رجال الدولة وأعيان الرعية وخطب فيهم خطبة أوضح فيها فوائد العسكر النظامي ومنافعه وأخبرهم أنه اعتزم على تنظيم عدد منه فأجابه الجميع ، ونودي أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين بتجنيد الأجناد وتنظيم العساكر . . فمن أراد الدخول تحت اللواء المحمدي ويشمله عز النظام فليسارع إلى دار الأمانة والمعسكر ، ليقيد اسمه في الدفاتر الأميرية .

ومع انتصارات فرنسا في جبهة قسطنطينة أخذت تظهر بين جنودها آثار الحروب الإفريقية ومتاعبها ، فقد ساعدت سنوات السلم على ازدياد حوادث العصيان بين الجنود الأوروبيين ومخالفة الأوامر ، وعدم الاذعان للقواعد المعمول بها في الفرق الفرنسية بأوروبا ، نتيجة لاختلاف البيئة والجو ، بل أن مضى السنوات أبان اختلال الأنظمة الصحية وأساليب التغذية ، واضعف النظام بما أدى كما قلنا إلى الإستهانة بتطبيق القواعد العسكرية ، وظهور حوادث العصيان ، وأعقب ذلك نكبة مليانة التي أظهرت للعيان ضعف قوة المقاتلة لدى الفرق الفرنسية الصميمة ، وفقدان الروح العسكرية ، ودرجة الضبط والربط ، التي عرفت عن الجيش الفرنسي . إزاء هذه النكبة اضطرت فرنسا إلى تغيير قيادتها العامة في الجزائر برمتها وأجبرت على إدخال أنظمة جديدة للجيش وإلى العمل على رفع مستوى الحياة في الشكنات والمعسكرات والتشديد في المحافظة على روح المقاتلة والكفاح في المستوى المعتاد ، بعد أن كانت هبطت . هبوطاً ملحوساً في المعارك الأخيرة .

ولم يستفد الأمير عبد القادر من هذه الفوضى الضاربة أطنابها لما ينقصه من خبرة وإلمام بأساليب الأوروبيين وأنظمتهم وإلا لضربهم ضربة ميته وقت شدتهم .

ومن كل ذلك تخرج بنتائج مؤلمة .

إن جهاد أهل الجزائر كان مجيداً ومشرفاً لهم ، ولسكنه لم يكن موحداً تتولاه هيئة قيادة عامة ، كان جهاداً مرتجلاً ، ولم يكن هناك ارتباط أو تفاهم أو تآزر بين مختلف الجهات .^(١)

إن الأمير عبد القادر بقى وحده يجاهد ، فلم تصله أية مساعدة من تركيا أو مصر .

إن عبقريته ظهرت في المعارك التي انتصر فيها ، ولكن لم يدعمه أحد من القواد أو الفنين الأوروبيين .

إن متاعب العدو ومشاكله بقيت مكتومة من علم الأمير وقواده إن المكاتب العربية التي أنشأتها فرنسا كانت على علم تام بمشاكل الأمير ومتاعبه وكانت تزيدها وتحركها وتشعل نيرانها إذا همدت . إن السلم الذي حصلت عليه فرنسا كان هدنة لكي تتمكن من توجيه ضرباتها إلى جهات أخرى ، ثم تعود إلى الجهة التي سالمتها لتقضى عليها .

في وسط هذه الحروب تبدو حكمة الضابط الياباني أنه أخذ بالعقلية الأوروبية لأجل الخلاص ، لأجل إنقاذ الوطن لكي ينتصر على الأعداء: وهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى كسب المعركة .

(١) ظهرت هذه الأخطاء في حملة فلسطين ١٩٤٨ .

القسم العاشر

الاستعمار الفرنسي في الجزائر العربية

يوليه ١٨٣٠ - يوليه ١٩٤٧

« نحن نقص عليك نبأهم بالحق ،

قرآن كريم

إنه نبأ هذه الأمة الجزائرية العربية ، التي تسكن أرض الجزائر
ولها على هذا الوطن الحق الطبيعي التاريخي الثابت ، الذي لا تضعفه
أقاويل فرنسا وادعاءاتها ، لأنه منبعث من ثنايا القرون العديدة التي
أمضتها هذه الأمة على أرضها ، وهي تتمتع بكامل شخصيتها وميزاتها ،
لا يشاركها فيها أى مشارك ، ولا ينازعها فى اجمادها أى منازع .

إنها قضية تسعة ملايين نسمة من المسلمين ، تحاول فرنسا أن
تجعل منهم قطيعاً فى بلادهم ، فى الأرض التي حملت تاريخ آبائهم
وأجدادهم . أتدرى إنهم محرومون من حق سياسى أو اجتماعى أو
ثقافى ؟ . وأنهم لا يستطيعون أن يجهروا بأقوالهم ومشاعرهم ، لأن

حرية القول ، وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، بل حرياتهم الدينية محرمة عليهم .

والكى تحتفظ فرنسا بإدارتها الاستعمارية وجبروتها ، تلجأ إلى فرض نوع من الرقابة البوليسية لا يقل عن أشد أنواع الجستابو ، الذى فرضته ألمانيا النازية ، والجيبو الذى فرضته روسيا السوفياتية على أراضيتها . إنها تجعل من إدارة الأمن العام والمكاتب الوطنية أداة للإرهاب والنشريد والتجسس ، وكبت الحريات لدرجة أنها تصرف خمس الميزانية ، على هذه الاداة البوليسية الجبارة .

تصور حكومة تشتري كيانها وحكمها وإدارتها ، بأن توزع خمس أموالها على هيئة بوليسية للقمع والإرهاب . ماذا يبقى لها أن تفعله فى ميادين الحياة العامة ، ونشر التعليم ، والصحة . وهى مضطرة أن تحتفظ بجانب هذا بمبالغ للصرف على الجيش والقوات المسلحة الأخرى .

لقد عرفنا شاتينيو Chataigneau سكرتيراً عاماً لمفوضية فرنسا بسوريا ولبنان ولحقنا فى أحاديثه وأقواله الرجل الفرنسى ، المتمسك بمبادئ الثورة الفرنسية ، وتقاليدها المنبعثة ، مما أعلنته عن حقوق الإنسان . كان يصرح بهذا وبلاذه تحت الحكم النازى وسيطرة جيش الاحتلال ، ودارت الأيام فإذا به يشغل مركز الحاكم

الفرنسي العام . إنه يمثل الجمهورية بلاد الجزائر ، وها هو ذا قد لبس لباس الاشتراكية ، وجاهر بحقوق الأمم المظلومة ، ولكنها في نظره وفي عقيدة أمثاله من اليساريين : من اشتراكيين وشيوعيين قاصرة على الأمم الأوربية وحدها . أما شعوب الشرق ، وأمم الاسلام فهي في الجزائر ، وشمال إفريقيا ، وفي بخاري ، واواسط آسيا - سواء في تحمل الضغط والخضوع لسيطرة الإستعمار الفرنسي أو السوفيتي . ماذا يقول حاكم الجزائر الاشتراكي . إنه يقرر في خطابه الذي ألقاه في يوم ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٥ بالمجلس المالي الجزائري (إن تضخم أرقام الميزانية راجع إلى زيادة عدد الموظفين في إدارة الأمن العام .)

أى أن حكومة الجزائر الإستعمارية الرجعية التعسفية ، والتي يوجد على رأسها حاكم إشتراكي تشتري وجودها بضمن باهظ ، من حياة الشعب الجزائري . إذ تفرض عليه الجهل الدائم ، لتعيش مع جيش موظفيها . إنها تترك الأمراض وتسرى وسط جماعاته والمنون تأكل من أطفاله ، لكي تعيش هي مع جيش من الموظفين الفرنسيين يخدمون مآربها ويؤكدون سلطانها ، وجبروتها عليه .

وفي الوقت الذي تصرف فيه فرنسا على بوليسها وغيونها هذه الثروة الطائلة من أموال الشعب الجزائري نجد أن ما خصصته من هذه الميزانية للصحة العامة لا يتجاوز أربعائة وثلاثين مليوناً من الفرنكات ، وما أرصدته منها للتعليم أقل من ذلك بكثير :

لذلك انتشرت الأمراض بين طبقات الأمة وضج المستعمرون حينما تبين لهم أن نسبة القادرين على حمل السلاح من الجنود الوطنيين قد هبطت لأن الأحوال الصحية لم تعد تسعف الآتون الفرنسي بالآلاف المؤلفة من أبناء الغرب الجزائريين ، لدفعها إلى جوفه في حملاته الإستعمارية ، وليحولها إلى أشلاء وهياكل عظمية ، إنه يطلب المزيد من ضحاياه .

فهذه القوة الجبارة التي تسمى « إدارة الأمن العام » هي أداة إستبدادية نجدها في تحفز دائم واستعداد دائم للانقضاض على الشعب الجزائري إذا تحرك ، أو أظهر امتعاضا . إنها تمكن المستعمرين من إبعاد أمة بأسرها عن دقة الحكم ، وعن تولى المصالح العامة في بلادها . أى تجعل من شعب يزيد تعدادده على تسعة ملايين نسمة غريباً في بلاده ، طريداً في وطنه ، منبوذاً على الثرى الذى حمل سطوة آبائه وأجداده ، بل تفعل أكثر من هذا ، إنها تقيم بينه وبين العالم سدا لا يجعله يبصر شيئاً مما وراءه ، لأنها تعزله عن الدنيا كما يعزل الموبوء والمجذوم ، كى لا يرى نور العالم . ألا فليعلم العالم أجمع أن أهل الجزائر محرومون في بلادهم من قراءة الجرائد العربية التى تأتى إليهم ، وإن لدى المكاتب العامة قواعد لا تسمح لها أن تعير الوطنيين حتى الكتب الفرنسية ، التى تتحدث عن الحرية وآمال الشعوب .

فهل رأيتم سدا كهذا السد .

أما في الميدان الاقتصادي فما من شعب من شعوب الدنيا تحمل ما تحمله الشعب الجزائري ، منذ وضعت فرنسا قدمها في شمال إفريقيا . إنها أخذت تنهب الثروة الوطنية ، وتصادر أملاك الأهالي . وتجعل أراضي الحكومة والدولة وخيرات الأمة وقفا على المستعمرين . الفرنسيين ، ومن لا ذنب لهم من طريدى الجنسيات الأخرى . ولقد نقل صاحب كتاب تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر أن قائد الجنود الفرنسية رتب مجلسا من رؤساء الجند ، لضبط الخزائن من الأموال والمهمات الحربية والذخائر ، فتحصل من ضبطها على ما قيل من الذهب والفضة ، وقيمة الجواهر ٥٢٧ و ٦٨٠ و ٤٨ فرنكا من الذهب ، ومن الخنطة والشعير ٣ ملايين ومن المدافع والبنادق والبارود والقنابل وغيرها مع ثمن الأملاك الأميرية خمسين مليونا .

فهذه الثروة الطائلة التي وقعت غنيمة لأيديهم عند الفتح علمتهم . طريقة الاستحواذ على غيرها ، فإذا هم من يولية سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٤٧ يسIRON على هذا المنوال من المصادرة والاعتصاب حتى انتهوا بأن فرضوا الفقر والفاقة والإملاق على شعب بأسره . وهذه الثروة الطائلة قد غطت ما تكلفته الحملة الفرنسية الأولى .

من أعباء مالية علاوة على ضياع الديون ، التي كانت فرنسا مدينة بها لحكومة الجزائر الإسلامية .

أما مصادرة أملاك الوطنيين فسياسة وضعتها فرنسا وقلدتها فيها إيطاليا وإسبانيا ، وهي تتلخص في تحديد منطقة خصبة من الأراضي ، ونزع ملكيتها اغتصاباً ، ونقل سكانها بالقوة منها .^(١) وقد عمدت فرنسا لأول مرة إلى هذه السياسة في أقاليم القبائل وفي جهة قسطنطينة كعقاب أنزلته بالسكان الجزائريين عقب ثورة عام ١٨٧١ ، إذ نزعت ملكية ما مقداره خمسة ملايين من الأفدنة المصرية ، منها مليون فدان من أجود الأراضي الخصبة شردت أصحابها ، وجعلت هذه الأراضي لإسكان المهاجرين الفرنسيين ، خصوصاً أهالي الألزاس واللورين ، وهم الذين طلب باسمهم الكردينال لا فيجري ، تسليمهم هذه الأراضي ، وإخراج الأهالي الوطنيين منها دون أن يعرض أصحابها شيئاً .

وقد سارت حكومة الاستعمار على طريقة فرض غرامات باهظة ، وتحصيلها بشدة متناهية ، فأخذت ملايين الفرنكات من أهالي المقاطعات التي قامت بثورة القبائل ، وعرف الوطنيون الذلة والمسكنة ، ويبيع الأراضي والدور في سبيل عتق رقابهم .

(١) تنفذ هذه السياسة ضد المسلمين في روسيا والقوقاز وفي الهند وأخيراً بشكل علني في فلسطين .

ولا يزال بعض الإخوان المغاربة الذين لقوا الويل على أيدي فرنسا ، يحدثون أهل الشام بهذه الكوارث ، ويقولون لهم : أنتم بخير مادتم بعيدين عن حكم فرنسا المباشر ، وهو الذى يمثله قاضى الصلح الفرنسى ، وحارس الأحراش ، فالثانى يكتب المخالفات والأول يصدق غيايا عليها فلا يشعر صاحب الملك الوطنى إلا بالتبنيه على نزع الملكية يلاحقه ، فلا يقدر أن يفلت من يدى القضاء إلا وهو مجرد من كل ما يملك .

وبهذه الأساليب والقواعد التعسفية خرجت أحسن وأخصب الأراضى الزراعية وأجودها ، من أيدي الوطنيين ، وأصبحت تحت يد المستعمرين الفرنسيين ونزلت نسبة أملاك الجزائريين إلى نسبة ٣٦٪ من الأراضى الزراعية ، التى كان يملكها الجزائريون إرثاً عن آبائهم وأجدادهم ، وأدخل الفرنسيون فلاحه الكروم التى شغلت أكثر من ستة ملايين فداناً ، وهى كروم مخصصة لأنواع الأنبذة فهبطت مساحات الأراضى المخصصة بالحنطة والمحاصيل الحبوبية ، لمعيشة السكان الوطنيين وتعرضت مناطق الجزائر لأخطر المجاعات ، التى انتابت أفريقية فى العصور الحديثة ، نتيجة لتلك السياسة الإستعمارية التى انتزعت من الأهالى أخصب أراضيتهم ، وجعلت منهم عمالاً أجراء ، يعملون لدى الكولون

الفرسي لقاء دراهم معدودة ، في أراضى كانوا يملكونها في
الأمس القريب .

فالبلاذ الجزائرية التي كانت قبل ١٨٣٠ تكفي سكانها من
محاصيلها الزراعية ، وتصدر من خيراتها الشيء الكثير قد أصبحت
في موقف اقتصادي ، يجعلها عالة على غيرها في إطعام سكانها
وإعاشتهم ، لأن الاقتصاد الزراعي والإنتاج الذي فرضته فرنسا
عليها لا يتفق مع حياة السكان الوطنيين ، ومصالحهم ، وموارد
رزقهم ، وتنظيم أمور معاشهم ، فهم في فقر مدقع ، واحتياج دائم
ويموت من هؤلاء آلاف كل سنة بسبب الإملاق والمرض
وسوء التغذية .

وقد مات في سنة واحدة حسب التقارير الفرنسية ما يقرب من
نصف مليون جزائري ، إبان المجاعات التي انتابت بلاد الجزائر في
إحدى سنوات القرن الماضي ، ولم تحرك هذه النسبة أحداً من
الأجانب ، الذين لم يشعروا بها ، وكانوا في رغد من العيش الدائم .
إن قيام سلطة حكومية فرنسية بالجزائر أمضت أكثر من مائة
عام ، لا يهتمها شيء من أمور المواطنين — أمر لا يقبله نظام العالم
الجديد ، ولا يمكن أن يسلم به دعاة الحرية ، ومن يتبجحون بمبادئ
رفع الظلم عن الشعوب المغلوبة على أمرها ، هذه حكومة

تفرض الإمتيازات وحقوق الإنسان لفريق من السكان ، تمنحه كل الخيرات ، والباقي منهم أى تسعة أعشار السكان ، وهم أهل البلاد مجردون من كل حق لهم ، بل تطاردهم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتسير بهم نحو التشر يدوالإفناء .

وفي سبيل إبقاء هذه الحالة تحرم الحكومة الجزائرية الفرنسية أهل الجزائر من حق التعليم ، وما يتبعه من حق النفوذ الإجتماعى .
ففى منذ سنة ١٨٣٠ أبطلت كافة المؤسسات الثقافية والتعليمية ، التى كانت قائمة بمدينة الجزائر وفرضت سياسة الجهل المطبق ، ومحاربة اللغة العربية ، لغة البلاد الرسمية ، واعتبرتها لغة أجنبية ، بل ذهبت لأكثر من ذلك ، إذ حرمت تعليم القرآن الكريم فى الكتاتيب إلا إذا علمت معه الفرنسية ، فكم عدد هذه المؤسسات التى بوسعها أن تعلم لغة أجنبية فيها ؟ كان هذا القانون بمثابة حرمان الأهالى من تعليم الكتاب الكريم ، ولا يوجد ما يشبه هذا القانون سوى الإجراءات التعسفية التى فرضتها حكومة فرديناثد وازابلا ، على أهالى غرناطة المسلمين عندما أوقعهم سوء الحظ تحت بطش قوم نزعت كل عواطف الإنسانية من قلوبهم .

ولعل أعظم ما يمتاز به الإدارة الفرنسية بالجزائر محاولة نشر الجهل ، وتعميم الأمية بين طبقات الشعب الجزائرى ، حتى لا تقوم له قامة ، أو يشعر بشخصيته ووجوده .

فقد صرح عميد الجامعة الجزائرية أمام لجنة الإصلاحات الإسلامية في يناير سنة ١٩٤٢ بمدينة الجزائر (أن بين ١٢٥٠٠٠٠ طفل وطني في سن الدراسة ١٠٠٠٠ فقط خصصت لهم ٦٩٩ مدرسة وأن عدد الأوروبيين حسب الإحصاء ٩٠٠٠٠٠ وعدد أبنائهم الذين يتمتعون بالتثقيف والتعليم الابتدائي ٢٠٠٠٠٠ طفل خصصت لهم ١٤٠٠ مدرسة) .

هذه أرقام تتحدث بنفسها عن سياسة فرنسا إزاء رعاياها المسلمين بالجزائر ولو شئنا أن نقيس حالتهم في درجات التعليم العالي والثانوي لرأينا العجب العجاب فإن النسبة لا تتعدى فيها ١٠ ٪ . بأي حال من الأحوال ولم نكن نصدق شيئاً من ذلك حتى عاينا هذا بأنفسنا في بعض المعاهد الفرنسية التي تفرض لأبناء المسلمين نسبة معينة لا تتعداها ، مهما كانت ظروف أهلهم ، وذلك لكي يقترب الإسلام بالجهل ، وتلصق بالمسلمين ظلماً وصمات التعصب والتأخر وعدم الرقي والخروج عن ركب الحضارة في القرن العشرين .

هذه سياسة أمة تقول : إنها أعلنت حقوق الإنسان ، وبشرت العالم بدين جديد بمبادئه وبالحرية والعدالة والمساواة وانها هدمت بثورتها صروحاً للاستبداد ويزيد الفرنسيون على ذلك قولهم : إنهم حملوا اعلام الحرية والرقي والسعادة إلى بلاد الجزائر ولقد رأيت فيما تقدم نالبراهين القوية على سيطرتهم ، وجبروتهم وإفلاسهم في حكم الجزائر .

ليس لدينا الآن دليل قاطع على توجه العالم نحو المثل العليا ، بل إن موقف مجلس الأمن إزاء قضايا مصر وفلسطين واندونيسيا ليس مشجعاً . ولعل انقسام الكرة الأرضية إلى معسكرين من نتائج هذه الرجعية القائمة في أنحاء الدنيا .

ولكن على الشعوب مهما كانت الظروف القائمة أن تشق طريقها إلى حياة النور ، وأن تعمل لتغلب على المصاعب القائمة ، حتى تفرض شخصيتها وآمالها وأهدافها ، على العصر الذي تعيش فيه . سيكون الطريق وعراً أمامنا ، والعقبات صعبة في صعودنا نحو الحرية والعدالة ، ولكننا لن نرجع عن طلب معاملة الند للند ، وأن . يعتبرنا العالم مجموعاً حياً راقياً ، نملك من حق الرعاية والمعاملة ما يملكه أى مجموع أوروبي راق ، يسير نحو التطور . إننا نفضل أن نفنى جميعاً من أن يحاول العالم إرضاءنا بالعرض دون الجوهر ، أو يلبيّننا بالآقوال دون الحقائق . إننا نأخذ عقلية وأساليب أوروبا لتغلب على جبروت أوروبا .

القسم الحادي عشر:

الاستعمار يواجه الاسلام في الجزائر

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك
من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز
من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير
إنك على كل شيء قدير

(آل عمران)

ولنبلونكم بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال
والأنفس والثمرات وبشر الصابرين.
(البقرة)

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي
ومماتي لله رب العالمين.
(الأنعام)

تبين للعالم قوة الإسلام ، وعظمة الرسالة المحمدية ، في هذه الآيات البينات ، التي دعت المسلمين إلى الصبر والمصابرة ، للوقوف أمام حوادث الدهر بشجاعة وثبات ، فلا تلين قناتهم ، وتذهب ريحهم وإنا لنبعث بها تحية لأخواننا المسلمين بالجزائر ، الذين وقفوا أمام فرنسا وجبروتها . ولئن كانت صفحات كفاحهم السياسي والحربي في الجزائر ، معروفة أمرها وتداولتها الأيام ، فإن كفاحهم الديني في وطنهم وثباتهم معجزة من معجزات الله لأن فرنسا في معاهدة ١٨٣٠ مع حاكم الجزائر تعهدت كما قلنا باحترام الدين الإسلامي وشعائره ، وأخذت على نفسها الموائيق ، لأن تترك للمسلمين أوقافهم وعوائدهم ثم عقدت عدة معاهدات . واتفاقات ، مع الأمير عبد القادر الجزائري وغيره من الزعماء ، وفي نصوصها جميعا : العهود والموائيق على غرار هذه المبادئ ، وهي حرية العقيدة وترك أمور الدين الإسلامي وشعائره بيد أهله .

ولكن هذه المعاهدات ، وما تحمله من إيمان ووعود ، وما أعقبها من تصريحات رسمية صادرة من الحكومة الفرنسية وممثلها ، ثم من الأمبراطور نابليون الثالث نفسه ، عند زيارته للأقطار الجزائرية كل هذا لم يمنع الاستعمار أن يبسط يده على كل شيء في هذه البقعة العزيزة علينا ، وكان من جملة ذلك أن مدت فرنسا يدها إلى الدين

الإسلامي، وإلى الأوقاف الإسلامية، تراث القرون الماضية ومفخرة المسلمين، لأنها أوجدت ووقفت وبقيت طول الأزمان واحترمها ملوك المسلمين وأمرائهم لما يعلمون من أنها أرصدت للصرف على المؤسسات الإسلامية، وهي هذه المدارس والمساجد الجامعة، التي تحرص على تثقيف أبناء الأمة، وتثبيت قواعد الدين، وتلقين الناس تعاليم الشريعة الغراء.

فما الذي حدث في الجزائر؟

ذكر الدكتور انريكو انسيباتو الإيطالي في كتابه الإسلام وسياسة الخلفاء (ص ٧) ما يأتي بالنص:

ارتبطت الحكومات الأوربية في بعض الجهات باحترام أملاك الأوقاف وما أرصد من الأملاك على الزوايا والطرق الصوفية، وهذا شرط خطير يحسن بإيطاليا أن تفكر فيه طويلا، قبل أن تأخذ به، لما ينتج عن احترامه من نتائج وخيمة، سبق لفرنسا أن تحملتها في الجزائر، لأنها حينما أعطت هذه الموائيق والعهود لم تكن لديها فكرة واضحة تماما، عن أهمية أوقاف المسلمين، وأثرها في إبقاء قوتهم الدينية، فكان من نتيجة هذه السياسة المرتجلة أن ارتكبت فرنسا سلسلة من الأخطاء للخروج من هذه السياسة، التي فرضتها على إرادتها، فاضطرت أن تناقض ما أخذت به نفسها، وتعهدت للمسلمين باحترامه.

(١) ولما هاجم المستعمرون نظام الاوقاف في شمال إفريقيا عامة ، قالوا :
إنه نظام رجعي ، يمنع تداول الثروات ، والقصد من ذلك حرمان
المسلمين من أملاكهم ، ونسبوا إليه أنه نوع من استغلال عمل الإنسان
لأنه يفرض الجبر وذلك حينما رأوا الطلبة والمريدين يتلقون العلم في
الزوايا والمدارس الإسلامية ، ويعملون في زراعة الاراضي
الملحقة بالمعاهد ، وكانوا يطلقون على هذا العمل التعاوني الإنساني :
إسم المعونة . ولما ازدهرت أملاك الاوقاف وزاد خيرها استكثروا
هذا الخير عليها : وحاربوها بإسم الحرية والعدالة والمساواة ، وهم
يعلمون أنهم يقصدون أولا وآخرا هدم قواعد الدين وأفكار أهله
وهذا ما وصلوا إليه ، حينما شردوا الطلبة ، ونزعوا أملاك الاوقاف
ولم تكن هذه الاوقاف مرصدة للعلم وحده ، وإنما كانت لوجه
الله للسائل والمحروم ، وفي هذه الناحية بالذات يقول صاحب كتاب
« التشريع الإسلامي الجزائري » صفحة ١٨٠ ما يأتي ،

إن خمسة أعشار الاراضي الزراعية في الجزائر كانت أوقافا ،
وأن فرنسا حينما صادرت هذه الاملاك بسطت يدها على الدين
الإسلامي ، وجعلت آلافا من الاهالي الذين كانوا يعيشون في تلك
الاراضي جماعات ، تتجول لطلب العيش ، فأصبحت تسمى
بـ بغيات الفقراء .

(١) يلاحظ القارئ أن الذين يهاجمون الاوقاف بمصر يستعملون منطق
الدول الاستعمارية .

والحكومة الفرنسية تمثل فكرة لادينية^(١)، ومعنى هذه السياسة في العرف الذي نادت به فرنسا هو الكنيسة الحرة ، تتعاون مع الدولة الحرة .

وتفسير ذلك أن تمتنع الحكومة عن فرض إرادتها على أنظمة الكنيسة، وقرارات رجال الدين ، فيبقى الفاتيكان يقوم برسالاته الدينية والسياسية بحرية أوسع مما كان في السابق .

ولما انتقدت سياسة فصل الدين عن الدولة صرح احد اعضاء مجلس الشيوخ « إن هذا الفصل طلاق ولكنه يلزم الطرفين بالعيش تحت سقف واحد مع تعاون وتفاهم أوفق مما عهداه قبل صدور حكم الطلاق . »

وقال أيضا « أن الكاثوليك سيكونون أكثر كاثوليكية تحت هذا القانون ، لانه يؤكد سلطة البابا ، ويحترم ممثليه ويترك لهم الحرية دون أن يقفوا للدفاع عن أعمالهم أمام ممثلى الجمهورية . »

وايس هناك أصرح من هذه الأقوال لترك شئون الله ، وشئون قيصر لقيصر ، فما الذى هيأته حكومة الجمهورية التى فصلت الدين عن السياسة لرعاياها المسلمين ، الذين اعترفت لهم بحقوقهم الدينية كاملة ؟ .

يقول صاحب كتاب « بحث النشريع الجزائرى صفحـة ٦٣٢
لـا رـشـير .

إن الأوقاف الإسلامية التى تتولاها الدولة يصرف دخلها
على ناحيتين :

الدين الكاثوليكي ٧٩٠.٠٠٠ فرنكا

الدين الإسلامى ٢٣٧.٠٠٠ فرنكا

والاعتراض الاساسى هو كيف تتولى دولة ينص دستورها على
فصل تام بين شئون الدين والدنيا أملاك دين ، لم يكن لـة بها صلة فى
يوم من الأيام ، فعلى أية قاعدة بنيت هذه السياسة ؟

والإعتراض الثانى : هو إذا فرض أن رأت هذه الدولة أن
تتبرع من أموالها بهذه المبالغ ، وهى دولة لادينية فالمعروف أن
أتباع الديانة الكاثوليكية لا يصلون إلى عشر السكان المسلمين ،
ولكنهم يتمتعون بما يزيد على ضعف المبالغ المخصصة للشئون
الدينية لمن هم أكثر من عشرة أضعافهم ، فأى قاعدة إنصاف
أخذت بها ؟ .

ويهون الأمر لو كان هذا تبرعا ، ولكن لأن يؤخذ هذا من أملاك
وأموال وأوقاف المسلمين وهى مرصدة ومحبوسة على هذه الناحية

منذ قرون طويلة الأمد ، ولم يتعرض لها أحد من الدول ، التي تعاقبت على حكم الجزائر ، وهذه ثلاثة الإعتداءات ، التي لا يبررها منطق الآن ، ويفسر لنا كيف ضعفت الحياة الدينية في الجزائر وفي ذلك يروى لنا (البير ديفوكلي A . Devauchi في كتابة المؤسسات الدينية في العاصمة الجزائرية أن مدينة الجزائر كانت تحوى ١٨٦ مسجداً في سنة ١٨٣٠ ولا يوجد في القطر الجزائري بأ كمله غير ١٦٦ مسجداً جامعاً كما ذكر ذلك صاحب (بحث التشريع الجزائري) ولا نشك في أن هذا العدد سيهبط إذا دام حكم فرنسا جبلاً آخر . وليان هذه السياسة التعسفية إزاء المسلمين وشريعتهم ودينهم يحسن أن نشرح هذه الفكرة ، من مراجع الاستعمار الفرنسي نفسه . فقد جاء في كتاب جورج هاردى G , Hardy « نظرياتنا الإستعمارية الكبرى » إنه في المناطق التي لم يسدها الإسلام قط أى في أفريقية السوداء ، يجب أن تحاط الأديان والمذاهب الأفريقية بما يكفل حمايتها وبقائها وفي مناطق البربر يجب منع تعليم اللغة العربية منعاً باتاً ، وعدم تشجيع نشر المكاتب القرآنية ، ومنع نصب القضاة المسلمين والحيلولة دون تنفيذ شريعة الإسلام ، « أما في الجهات التي ثبتت قواعده في ربوعها فلا مانع من تركه (١) يعيش ، ولكن فلنحترس من الاهتمام بأمره ، وإظهار الإعجاب به .

(١) تنفذ بعض الدول الإسلامية المستقلة هذه السياسة في أراضيها .

فهذه أصول السياسة الإسلامية الفرنسية، وهي تحول دون إنتشاره في أفريقية، وتعتبر القبائل من أهل الجزائر ومراكش غير مسلمين، وتحاول أن تحد من أثر الإسلام في المناطق الإسلامية الصميمة.

فلننظر إلى بدء هذه السياسة، وما تركته في نفس الشيخ محمد يرم التونسي، صاحب كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، الذي طبعه سنة ١٣٠٢ هجرية، عن زيارته لجزائر، في رحلته عام ١٢٩٥ هجرية، وقد مضى على ذلك سبعون عاماً تقريباً إذ قال :

أن الدولة الفرنسية هي القائمة بمصاريف إقامة الجوامع وما فيها من قراءة الأحزاب أو كتب الحديث، لأنها استولت على جميع الأوقاف، واقتصرت في كل بلد على عدد مخصوص من المساجد، تقوم به وغيره، تصرف فيه بما يناسبها، وحرمت المستحقين من مالهم كأوقاف الحرمين.

وذكر كيف أقدمت الهيئات التبشيرية عند وقوع المجاعة الكبرى في الجزائر على تنصير عدد من الأولاد الأعراب وغيرهم من المسلمين بنات وأطفالاً، وإن بعضاً منهم لما كبروا وعلموا بأن أهلهم مسلمون فروا إلى أهلهم.

وأشار إلى بقية من علوم السلف كانت تدرس في قسطنطينية ، وتلمسان والجهات الجنوبية ، ولكن القلق كان شاملاً أفاضل العلماء ، فقد تقابل مع الشيخ علي الخفاف المفتي المالكي بقاعدة الجزائر وهو من تلامذة علامة القطر الأفريقي الشيخ إبراهيم الرياضي ، وله فضائل كاملة ، وتقوى ، وسكينة ، وإطلاع في الفقه والحديث . ولما أنس بمؤلف الكتاب فاتحه في أمر الهجرة إلى بلاد الإسلام فأخبره أن مثله نادر الوجود ، وإن بقاءه فيه لتعليم الناس دينهم أنفع له ، وأكثر ثواباً عند الله من خروجه بنفسه ، وترك تلك الأمة المسلمة خالية من مثله ، بل ربما كانت هجرته سبباً في خروج غيره فتحرم عامة المسلمين ممن يلقنهم تعاليم الإسلام ، وعقائد الفقه . وقد ورد في كتب الشريعة أنه إذا تعذر على ولي الأمر فداء الأسارى من يدي العدو فليؤخر بينهم العلماء .



فهذه حالة الجزائر من ناحية من أهم النواحي التي تهتمنا ، ناحية العقيدة الإسلامية ، وفيها عبرة وتذكرة ، لمن يريد أن يفهم حقائق الإسلام في قطر من أعز الأقطار الإسلامية ، وأقربها إلينا ، وأبعدا أثراً في تاريخ أفريقية العبرية ، التي لن تموت ، وفيها دعائم الإسلام القائمة .

وإننا لنعدها معجزة إن بقيت هذه الدعائم في أفئدة ملايين من الناس بعد سنوات الضغط السياسى ، والمحاربة التعسفية ، التى أشرنا إليها ، ولكن الذى نخشاه هو أثر سياسة الافقار ، التى فرضتها فرنسا على رعاياها المسلمين ، فهذه أبعد غوراً من أى أساليب الإرهاق التى رآها العالم ، وهى التى ورد وصفها فى محكم الآيات الواردة بالقرآن ، بقوله تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) فقد أصيب المسلمون فى نكبتهم بالاستعمار الفرنسى بهذه النوائب : قلة الغذاء ، وكثرة المرض ، وسكنى المنازل التى لا تليق بالإنسان ، ثم دهمتهم فى السنوات الأخيرة نكبات القحط المتتالية ، وتفشت فيهم الأمراض القاتلة .

فهنالك تفعل قلة الغذاء ، أو عدم تنظيمه ما تفعله فى كافة بلدان الدنيا ، التى أصيبت بحكم الأوروبيين ، حتى أصبح الكلام هنا إعادة لما سبق ذكره ، وتأثير هذا كبير فى تكاثر السكان وتناسلهم ، وفى إخراج جيل من الأجناس البشرية ضعيف لا يقوى على البقاء أو الصمود أمام تفوق الأجناس الأوروبية من الناحيتين العقلية والبدنية . ويسكن لدينا عدد من السكان فى أكواخ من صفائح الغاز الفارغة ولكن فى الجزائر يعيش أكثر من نصف مليون مسلم ، فى أحياء برمتها ؛ أوفى مدن قامت على هذا النوع من المساكن ، ولهذا لا نعجب .

أن نسمع أن أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ جزائري مصابون بالسل ، وهو يعادل عدد المصابين به في فرنسا ، وعدد سكانها يقرب من أربعين مليوناً ، ولما كانت الوقاية الصحية غير متوفرة لدى الأهالي وليس لديهم أية خدمات لحمايتهم ، فقد انتشرت الأمراض الزهرية انتشاراً اجتاح قرى برمتها .

إن أعظم صورة تقدمها فرنسا بعد حكم دام أكثر من قرن من الزمن هو مواكب النساء والرجال والأطفال ، الذين لا يجدون من الكساء إلا مايسترهم يسرون نحو بقايا الأطعمة ومزابلها يلتقطونها لسد رمقهم . بعد أن حرمتهم حكومة الاستعمار من زعمائهم ، وقادتهم ، ومدارسهم ، وأوقافهم ، وفرضت عليهم الذلة والمسكنة ، وحرمتهم من كل مميزات شخصية الدين واللغة والتوجيه . لقد بقي لهم شيء واحد هو الإسلام والإيمان بالله .

(قل أن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) .

قد يرى البعض أن الامة التي كانت ترج البحر الأبيض المتوسط قبل احتلال فرنسا قد رقدت رقتها النهائية واصبحت في ذمة التاريخ بعد أن أدّت رسالتها ولسكنه مخطيء في ظنه . فالامة الجزائرية ستحطم هذه الاغلال ، وستخرج من هذه الظلمات بقوة تبهر فرنسا والكولون الفرنسي ، لأن النيران المتأججة لايزال يريقها .

واشعاعها تخفيه تحت الرماد. امة إذا تحركت وثارت ستهز هذا الركن
هزة عنيفة ، لا تقدر على الوقوف إزاءها قوات الظلم والتعسف .
« اننا لا ننتظر الرحمة من أشد الناس عداوة لنا » .

« كما لا نرضى بالعطف يغمرنا به أحب الناس إلينا » .

« دعوني أصار حكم بالحق : والحق أقول » .

« أى أخواني فى الحروب والمعامع والمعارك » .

« انى احبكم من اعماق القلب » .

« إنى اعاهدكم كواحد فيكم » .

« اننى كما كنت فى الماضى سأبقى اليوم وغدا واحداً منكم » .

بهذا النشيد الذى كتبه الفيلسوف الالماني اختتم هذه الكلمة

وهو ينم عن شعورى تماماً : وأعتقد أن المسلمين فى كفاحهم سواء

فى شمال إفريقيا أو فى أنحاء روسيا ، أو فى مقاطعات الهند ، لن

يقابلهم خصومهم بالرحمة : سيفرض علينا القتال وهو عراك حتى الموت .

فأما النصر أو الابداء ولا وسط بينهما .

إن الحياة هى التفاؤل ، ونحن ندعو إلى انتزاع النصر فى السلم

والحرب ولا يكون هذا إلا بنقل الجماعات الإسلامية إلى حياة

القرن الذى نعيش فيه وتحاشى الوقوع فى الأخطاء التى وقعنا فيها قبل اليوم .

مراجع الكتاب

كتب عربية

١ - في بلاد الناس أو رحلة الشتاء والصيف .
بلاد الجزائر القطر التونسي طرابلس الغرب
المطبعة العثمانية . بيروت
تأليف عبد المجيد كامل الضابط بالجيش المصري سابقاً

٢ - تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر
المطبعة التجارية . الإسكندرية ١٩٠٣

٣ - صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار

١٣٠٢ هجرية

تأليف محمد بيرم التونسي

کتاب فرنیسی

- | | |
|--|----------------------|
| 1 — Histoire de l'Armée Française | Général Weygaud |
| 2 — » Militaire de Mohamed Aly et ses Fils | Parle |
| 3 — Campagnes Modernes | » Général Decoins |
| 4 — Nos Grands, Problèmes Coloniaux | » Georges Hardy |
| 5 — Réalités Coloniales Mercure de France | |
| 6 — Pour l'Empire Colonial Français | » Cabriel Hanotiaux |
| 7 — La Révolte Arabe | » Eugène Jung |
| 8 — L'Avenir Economique de nos Colonies | » » » |
| 9 — Voix de l'Orient | » Jacque d'Aumale |
| 10 — L'Islam et la Politique des Alliés | » Enrico Insabato |
| 11 — Les Siècles Obscurs du Maghreb | » E. F. Gautier |
| 12 — Précis de Géographie Economique | » J. F. Horrabin |
| 13 — L'Emir Abd El Kader | » Colonel Paun Azan |
| 14 — Allah est Grand | » Mohammed Essad Bey |
| 15 — Le Socialisme Constructif | » Henri de Man |

16—L' Allemagne en Afrique et La Guerre

Par

le Baron Hulot Librairie Telix Alcan 1918

17—La Politique Orientale de la Russie 1918

18—Discours et Messages Général de Gaulle

19—Le Livre Jaune Français

Ministère des Affaires Etrangères

20—. Les Intrigues Anglaises Contre L' Islam

Mohammed Farid Bey

Librairie Nouvelle de Lausanne 1917

مؤلفات فرنسية من مجموعتي

Les Doléances des Peuples Opprimés ;

33—En Algérie

Les Ccrruptions de la Religion et des Mœurs Indigenes

Par un Musulman Algerien

34—La Tunisie et l'Algérie

Par Cheikh Ismail Sefaihi Ancien Cadi de Tunis

et

Chiekh Saleh Cherif Ancien Professeur a L'université

Zeitouna de Tunis

35—L'Islam dans l'Armée Française

Lieutenant Indigén Bou kabouya Hadj Adallah

des Tirailleurs Algeriens

Librairie Nouvelle de Aouzanne 1917

کتاب انجلیزیه

21—History of The Great War

Military Operations :

22 — War Speeches

Winston Churchill

23 — The Rising Tide of Color

Lothrop Stoddard

24 — The New World of Islam

» »

25 — The Revolt Against Civilisation

» »

26 — The Menace of the Under Man

» »

27— One World

Wendell L. Willkie

28 — A study in German Ideals

General von Bissings Testament

29— Germany's Annexationist-Aims by S. Grumbach

مؤلفات طبعها ونشرها

The Christian Literature Society for India.

30— . The Ottoman Turks

The Rev. Canon sell

31— The Mamluks in Egypt

»

32— Muslims in China

»

تنبیه

وقعت بعض أخطاء مطبعية وزيادات في النص

يمكن للقارئ الكريم تداركها وقت قراءته .

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف	السعر
١	يسألونك	الأستاذ عباس محمود العقاد	٢٥٠
٢	أثر الشرق في الغرب	دكتور فؤاد حسانين	١٥٠
٣	قصة الكهرباء واللاسلكي	الأستاذ محمد عاطف اليرقوقي	٢٥٠
٤	مشكلاتنا الاجتماعية	• محمد عطيه الابراشي	٢٠٠
٥	الحبشة	• حسن محمد جوهر	٢٠٠
٦	الغزل عند العرب	• حسان أبو رحاب	٢٥٠
٧	عائشة أم المؤمنين	الآنسة زاهيه مصطفى قدورة	٢٥٠
٨	فلسفة القرآن	الأستاذ عباس محمود العقاد	٣٠٠
٩	أحاديث الصباح	{ الشيخ محمود شلتوت • محمد محمد المدني	١٥٠
١٠	أبطال الشرق	الأستاذ محمد عطيه الابراشي	١٥٠
١١	أبو العتاهية	• محمد احمد برانق	١٥٠
١٢	الراهبة المتوحشة	دكتور عباس ابراهيم حسن	١٠٠
١٣	المهن الذهبية	{ الأستاذ وهي اسماعيل حنفي • ابراهيم عبد الله	١٠٠
١٤	صخرة في واد	• محمود عنيم	٣٠٠
١٥	الصحافة والصحف	المرحوم الأستاذ عبد الله حسين	٣٠٠
١٦	الوزراء العباسيون	الأستاذ محمد أحمد برانق	
١٧	اللعب والعمل	الدكتور علي عبد الواحد وامي	
١٨	ولادة	الأستاذ علي عبد العظيم	
١٩	من كل نبع قطرة	• حسن جوهر	

فهرس الاستعمار

صفحة	الموضوع
ج	مقدمة سعادة توحيد السلحدار بك
٤	مقدمة المؤلف
٧	بحث في الاستعمار الأوروبي وسيطرته على العالم
٣٠	فرنسا ومستعمراتها
٤٦	صداقة وعداء وسط النكبات والهزائم
٥٧	في طريق الاتحاد الجبرى
٦٤	فكرة الاتحاد تواجه المصاعب
٧٢	ما بين الاتحادين الفرنسى والسوفييتى من تشابه
٨٧	فرنسا في مراکش
٩٤	الاعتداء على الجزائر
١١١	الأمير عبد القادر الجزائرى
١٢٠	كفاح الجزائر أمام جحافل فرنسا
١٣٢	الاستعمار الفرنسى في الجزائر العربية
١٤٣	الاستعمار يواجه الإسلام في الجزائر
١٥٥	مراجع الكتاب